إعجاز القرآن الكريم
فى فكر الرافعى

الأستاذ الدكتور
محمود سعد
أستاذ الدراسات الإسلامية
كلية الآداب - جامعة بنها

مطبعة الأمانة
٣ش جزيرة بدران-٥٧٥١٣٠٧

بسم الله الرحمن الرحيم

- المقدمة -

إن الحمد لله وحده لا شريك له ، سبحانه « علم القرآن خلق الإنسان علمه البيان » واصلى واسلم على رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه اجمعين .

وبعد :

فقد تلقيت دعوة طيبة كريمة من الأمانة العامة لمؤتمر الرافعي للدراسات الادبية لحضور مؤتمرها الأول والذى يعقد فى الفترة من ٧ من ربيع الآخر سنة ١٤٠٧ ه الموافق ٩ من ديسمبر سنة ١٩٨٦ م (١) بكلية التربية جامعة طنطا ورأيت أن الواجب يحتم على أن اسهم فى هذا المؤتمر ببحث يتناول إعجاز القرآن الكريم فى فكر الرافعى .. وقد قمت بتوثيـق النصوص وتأصيلها وتبين لى أن هذا البحث من الأفضل أن اسير فيه على النحو التالى :

اتحدث أولا : عن أوجه الإعجاز القرآنى عند الرافعى بعد ذلك اتناول بعض الإفتراءات على القرآن الكريم ورد الرافعى عليها من هذا قسمت هذا البحث إلى بابين :

الباب الأول : وتحدثت فيه عن أوجه الإعجاز القرآنى عند الرافعى وشمل ذلك :

١ - التحدى وثبوت العجز عن المعارضة :

أولا : التحدى وحكمته .

ثانيا : ثبوت العجز عن معارضة القرآن الكريم :

أ - انتفاء ما يمنعهم عن المعارضة .

ب - انتفاء عدم معارضتهم للقرآن وسبب ذلك .

---

(١) تأجل انعقاد المؤتمر نظرا لوفاة أ.د/سعد شلبى رئيس المؤتمر رحمه الله رحمة واسعة وتم انعقاده فى الثامن والعشرين من شهر ربيع الآخر سنة سبع واربعمائة والف الموافق الثلاثين من ديسمبر سنة ست وثمانين وتسعمائة والف.

٢ - نظم القرآن وشمل ذلك :
أولا : الحروف وأصواتها .
ثانيا : الكلمات وحروفها .
ثالثا : ألفاظ القرآن بطريقة استعمالها فوق اللغة .
أ - ائتلاف اللفظة القرآنية مع أصوات الحروف .
ب - الألفاظ الطوال في القرآن الكريم .
ج - الألفاظ المفردة والمجموعة .
د - موسيقا الألفاظ القرآنية .
ه - الألفاظ الغريبة .
و - الألفاظ التي يظن أنها زائدة .
ز - الألفاظ المعربة .
ح - الوجوه والنظائر والأفراد .
ط - الأسماء الجامدة .
ى - خطر الترجمة الحرفية للقرآن .
٣ - غرابة أوضاعه التركيبية :
أ) اعتراف البلغاء بإعجاز القرآن الكريم .
ب) المعجم التركيبي .
ج) اشتمال القرآن على فنون البلاغة .
د) طريقة القرآن النفسية في البلاغة .
٤ - إحكام السياسة المنطقية على طريقة البلاغة لا على طريقة المنطق .
٥ - الإعجاز اللغوي .
٦ - الإعجاز العلمي .
٧ - الإعجاز الأدبي (التشريعي) .
٨ - الإعجاز النفسي .
٩ - القول بالصرفة ورأى الرافعي في ذلك .
وتناول الباب الثاني :
افتراءات بعض البشر على القرآن الكريم ورد الرافعي عليه .
وشمل ذلك :
أ) نماذج من القديم
ب) نماذج من العصر الحديث .

اولا : افترااءات الدكتور طه حسين .
ثانيا : كلمة مؤمنة فى رد كلمة كافرة « آية القصاص » .
ثالثا : المرأة والميراث .

وفى النهاية اضرع إلى المولى عز وجل أن يجعل هذا العمل خالصا لذاته العلية كما أتقدم بأصدق الشكر والإمتنان إلى الأمانة الدائمة لمؤتمر الرافعى للدراسات الأدبية التى أتاحت لى فرصة الاشتراك فى مؤتمرها هذا والله أسال أن يهدينى سواء السبيل .

وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

د/محمود عبد النبى حسين سعد
أستاذ الدراسات الإسلامية
كلية الآداب ببنها

الباب الاول

أوجه الإعجاز القرآني عند الرافعي

أوجه الإعجاز القرآني عند الرافعي

وشمل ذلك :

١ - التحدى وثبوت العجز عن المعارضة .
٢ - نظم القرآن .
٣ - غرابة أوضاعه التركيبية .
٤ - إحكام السياسة المنطقية على طريقة البلاغة لا على طريقة المنطق .
٥ - الإعجاز اللغوى .
٦ - الإعجاز العلمى .
٧ - الإعجاز الأدبى « التشريعى » .
٨ - الإعجاز النفسى .
٩ - القول بالصرفة ورأى الرافعى فى ذلك .

ا - التحدى وثبوت العجز عن معارضته :

تمهيد : فى معنى الإعجاز والمعجزة

أولا : معنى التحدى وحكمته .

ثانيا : ثبوت العجز عن معارضته .

* انتفاء ما يمنعهم من المعارضة .
* عدم معارضتهم للقرآن وسببه .

١ - الفصاحة .
٢ - أسلوب القرآن مادة الإعجاز .
٣ - غزارة معانيه .
٤ - الكمال اللغوى .
٥ - التحدى ممتد إلى جميع العصور .
٦ - الصوت المطرب البالغ فى التطريب .
٧ - ما امتاز به القرآن من صفات أخرى : السهولة والرهبة واللين والمطاوعة .

أوجه الإعجاز القرآنى عند الرافعى

الإعجاز فى اللغة نسبة العجز إلى الغير وإثباته له ، يقال ؛ أعجز الرجل أخاه إذا أثبت عجزه عن شيء وأعجز القرآن الناس أى أثبت عجزهم عن أن يأتوا بمثله ويرى الرافعى أن الإعجاز متمثل فى شيئين :

* ضعف القـــدرة الإنسانية فى محاولة المعجزة .
* مزاولته على شدة الإنســــان واتصال غايته .

ولابد من استمرار هذا الضعف على تراخى الزمن وتقدمه فكان العالم كله فى العجز إنسان واحـد ، وليس له غير مدته المحدودة بالغة ما بلغت على مداه كله فإن المعمر دهر صغير وإن لكليهما مدة فى العمر هى من جنس الإخرى ، غير أن واحدة منهما قد استغرقت الثانية فإن شاركتها الصغر إلى حد ما فما عسى أن يشركها فيما بقى (1) .

والمعجزة هى حادث خارق لقواميس الكون التى يعرفها الإنسان مقصود به إقناع المنكرين بأن صاحبها مرسل من قبل الله إذا كان يأتى للناس بعمل لا يقدر عليه غير الله وإنما الأساس فيها والحكمة الأولى أنها تخرق القواميس المعروفة وتشذ عن القواميس المطردة فى حوادث الكون وعلى هذا الوجه يجب أن يفهمها المؤمنون بها والمفكرون لها على السواء فيخطىء المؤمن الذى يحاول أن يفسر المعجزة تفسيرا يطابق المعهود من السنن الطبيعية لأنه بهذا التفسير مبطل حكمتها ويلحقها بالحوادث الشائعة التى لا دلاله لها فى هذا المعنى أو بأعمال الشعوذة والتمويه التى تظهر للناس على خلاف على خلاف حقيقتها ، ويخطىء المنكر الذى يفهم المعجزة على غير هذا الوجه ثم ينكر إمكان وقوعها لإنها إذا دخلت فى نظام

---

(1) إعجاز القرآن الكريم للرافعى ص ١٣٩ .

القواميس المعهودة لم يجز له إنكارها ولم تخرج عن كونها شيئا من هذه الأشياء التى يتوالى ورودها على الحى فى أوقاتها (١) .

وعلى هذا فإنه ينبغى للمعجزة اولا أن تخترق النظام الذى يعهده الناس ، وينبغى لها ثانيا أن تمنع كل ريب فى حدوث ذلك الخرق بقدرة غير قدرة الله .

والقرآن معجزة "بالمعنى الذى يفهم من لفظ الإعجاز على إطلاقه ، فهو أمر لا تبلغ منه الفطرة الإنسانية مبلغا وليس إلى ذلك مأتى ولا جهة وإنما هو أثر كغيره من الآثار الإلهية يشاركها فى إعجاز الصفة وهيئة الوضع وينفرد عنها بأن له مادة من الألفاظ كأنها مفرغة إفراغا من ذنوب تلك المواد لها وما تكنه إلا الصورة الروحية للإنسان ، إذا كان الإنسان فى تركيبه هو الصورة الروحية للعالم فالقرآن معجزة فى تاريخه دون سائر الكتب ومعجزة فى اثره الإنسانى ومعجزة كذلك فى حقائقه وهذه وجوه عامة لاتخالف الفطرة الإنسانية فى شيء مابقيت" (٢).

(١) ساعات بين الكتب عباس محمود العقاد ص ٧ ط الرابعة ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٨ م

(٢) إعجاز القرآن للرافعى ص ١٣٩ .

ا- التحدى وثبوت العجز عن معارضته

أولا : التحدى :

كان العرب قد بلغوا لعهد القرآن مبلغهم من تهذيب اللغه ومن كمال الفطرة ومن دقة الحس البيانى حتى أوشكوا أن يصيروا فى هذا المعنى قبيلا واحدا باجتماعهم على بلاغة الكلمة وفصاحة المنطق وانهم الأول دعوة من بلغائهم وفصائحهم مع تباعد ديارهم بعضهم عن بعض وتعاونهم واختلافهم فى غير هذا الحس باختلاف قبائلهم ومعايشتهم لأن الكلام هو الذى يدفعهم إلى المنافرة ويبعثهم على المفاخرة وما كان الكلام صناعة قوم إلا أصبتهم معه كالجمل المؤلفه يرد بعضها بعضا ويدور بعضها على بعض فيكون كل فرد منهم كأنه لفظ حى وكأنه معنى حيات فى الألفاظ وفيه معا .

وهذا أمر ثابت ليس فيه منازعة ولا فساد ولا التواء ولم يظهر ظهوره فى أن ظهوره فى جاهلية العرب قبل الإسلام .

وجاء القرآن الكريم افصح كلاما وابلغ اسلوبا ومعنى ليجد السبيل إلى قلوب أهل الجزيرة العربية التى كانت مسرحا للخوض والاضطراب وهو لا يستطيع ان يستولى عليها إلا إذا كان اقوى منها فيما هى قوية فيه بحيث يشعر أهلها بالعجز والضعف والاضطراب شعورا لا حيلة فيه للخديعة والتلبس على النفس والتضريب بين الشك واليقين .

ومن طباع النفوس التى جبلت عليها انها متى خذلت وكان خذلانها من قبل ما تعده اكبر فخرها واجمل صنعها واعظمهما واصابهما الغرض فى ذلك ، وخربها الخزلان باليأس فكلما تنفعها نافعه بعد ذلك أو تجزئها قوه أخرى ولكما تصنع شيئا دون المراجع والاسترسال فيما انحدرت اليه ومجاوزة ما لا تستطيع إلى ما تسطيع .

مصطفى الرافعي (١٢٩٧ - ١٣٥٦ هـ)
(١٨٨٠ - ١٩٣٧ م)

مصطفى صادق بن عبد الرازق بن محمد سعيد بن أحمد بن عبد القادر الرافعي ، اديب ، كاتب ، شاعر . أصله من طرابلس الشام ، وولد في هتيم من قرى مديرية القليوبية في كانون الثاني ، ودرس في مدرسة دمنهور الإبتدائية ، ثم في المنصورة ، ونال الشهادة الإبتدائية وعين كاتبا في محكمة طنطا الأهلية ، واصيب بصمم ، فكان يكتب له ما يراد مخاطبته به ، وانتخب عضوا بالمجمع العلمي العربي بدمشق ، وتوفي في طنطا بمصر في ٢٩ صفر ١٣٥٦ ه ، ودفن فيها بمقبرة الأسرة الرافعية .

من آثاره ، ديوان شعر في ثلاثة أجزاء .
تاريخ آداب العرب في جزاين ، السحاب الأحمر ، المساكين ، وإعجاز القرآن .

راجع عمر رضا كحاله - معجم المؤلفين ١٣ / ٣٥٦

فمن ثم لم تقم للعرب قائمه بعد أن اعجزهم القرآن من جهة الفصاحة التى هى اكبر امرهم ومن جهة الكلام الذى هو سيد عملهم (١) .

وقد اشار إلى ذلك الرمانى ايضا بقوله " واما التحدى للكافه فهو اظهر فى أنهم ، لا يجوز أن يتركوا المعارضة مع توفر الدواعى الا للعجز عنها (٢) .

ثم يوضح لنا الرافعى الطريقة الفذه التى سلكها القرآن الكريم الى ذلك وأن "التحدى كان مقصورا على طلب المعارضه بمثل القرآن ثم بعشر سور مثله مفتريات لا يلتزمون فيها الحكمه ولا الحقيقه وليس الا النظم والاسلوب ، وهم اهل اللغة ولن تضيق أساطيرهم ، وعلومهم أن تسعها عشر سور (٣) .

لقد كان مسلك القرآن الكريم ولازال إلى أن يرث الله الارض ومن عليها فريدا فى التحدى حيث يقول الله عز وجل فى كتابه :

"قل فأتوا بكتاب من عند الله هو اهدى منهما اتبعه إن كنتم صادقين فإن لم يستجيبوا لك فاعلم انما يتبعون اهواءهم ومن اضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ، إن الله لا يهدى القوم الظالمين (٤) .

---

(١) إعجاز القرآن للرافعى ص ١٦٦ ، ١٦٧ .

(٢) النكت فى إعجاز القرآن للرمانى ص ٦٩ - ١٠١ .

(٣) إعجاز القرآن للرافعى ص ١٦٩ والبرهان فى علوم القرآن للزركشى ج٢/١١٠ .

(٤) القصص ٤٩ - ٥٠

طلب القرآن منهم فى هاتين الآيتين إنشاء كتاب مثل القرآن وكان قد نزل قبلهما من القرآن سبع واربعون سورة فعجزوا وولوا الادبار مع انهم فرسان الفصاحه وملوك البيان .

ومضى القرآن الكريم خطوه اخرى فى تحديثهم فلم يطالب بكتاب او بحديث مثله ، «فلياتوا بحديث مثله ان كانوا صادقين» ولكن طالبهم بعشر سور مثله ، قال تعالى : "أم يقولون افتراه قل فاتوا بعشر سور مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين ، فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا انما انزل بعلم الله وان لا إله إلا هو فهل انتم مسلمون (١) .

ثم قرن التحدى بالتانيب والتقريع ثم استفزهم بعد ذلك جملة واحدة كما ينفخ الرماد الهامد فقال عز شانه "قل فاتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين (٢) "وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فاتوا بسورة من مثله ، وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين" (٣) .

فقطع لهم انهم لن يفعلوا وهى كلمة يستحيل ان تكون إلا من الله ولا يقولها عربى فى العرب ابدا ، وقد سمعوها واستقرت فيهم ودارت على الألسنة وعرفوا انها تنفى منهم نفيا وتعجزهم آخر الأبد فما فعلوا ولا طمعوا قط ان يفعلوا (٤) .

---

(١) هود ١٣ - ١٤

(٢) يونس ٣٨

(٣) البقرة ٢٣ - ٢٤

(٤) إعجاز القرآن للرافعى / ١٧٠

وبحق فإن هذا القضاء الحاسم منه بانهم لن يستطيعوا أن ياتوا بشيء من مثل ما تحداهم به "ليس قضاء بشريا ومن الصعب بل ومن المتعذر ان يصدر عن عاقل التزام وشرط كالذى شرطه على نفسه لغلبه الظن عند من له شيء من العقل ان الأرض لا تخلو من صاحب قوة مثل قوته وإنما ذلك هو الله المتكلم والعليم الخبير ، وهو الناطق على لسانه - اى محمد صلى الله عليه وسلم - وقد احاط علمه بقصور جميع القوى عن تناول ما استنهضهم له وبلوغ ، ما حثهم عليه" (١) .

من اجل هذا خاطبهم الله بقوله عز شانه "قل لئن اجتمعت الإنس والجن على ان ياتوا بمثل هذا القرآن لا ياتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا" (٢) .

وثبت بذلك معجزة النبى صلى الله عليه وسلم على ان القرآن من عند الله القائل ، "وإنه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الامين على قلبك لتكون من المنذرين ، بلسان عربى مبين" (٣) .

"قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين" (٤) .

ولما راى العرب أن هممهم "لا تسمو إلى ذلك - إلى معارضته ولا تقارب المطمعة فيه وقد انقطعت بهم كل سبيل إلى المعارضة ، بذلوا له السيف ، كما يبذل المخرج آخر وسعه

---

(١) رسالة التوحيد للشيخ محمد عبده ص ١٧ .
(٢) الإسراء / ٨٨ .
(٣) الشعراء ١٩٣ - ١٩٥ .
(٤) النحل / ١٠٢ .

"واخطروا بأنفسهم وأموالهم وانصرفوا عن توهن حجته الى تهوينها على أنفسهم بكلام من الكلام فقالوا : ساحر (١) وشاعر ومجنون (٢) ورجل يكتب أساطير الاولين (٣) وإنما يعلمه بشر (٤) وأمثال ذلك بما أخذت به الحجة وكان إقرارا منهم بالعجز إذ جنحوا فيه إلى سياسة الطباع والعادات تلميحا كما تقدم وتصريحا كقولهم "أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون" (٥) . وقولهم "ما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين" (٦) .

وقال عز شانه "وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلا مسحورا" (٧) .

---

(١) قال تعالى (كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول الا قالوا ساحرا أو مجنون) الذاريات / ٥٢ وقال عز شانه (يايها الذى نزل عليه الذكر إنك لمجنون) الحجر/٦

(٢) قال تعالى (أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون) الصافات ٣٦

(٣) قال ومنهم من يستمع إليك وجعلنا على قلوبهم اكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها حتى إذا جاؤك يجادلونك يقول الذين كفروا إن هذا إلا أساطير الأولين) الأنعام / ٢٥

(٤) قال تعالى (لسان الذين يلحدون إليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين) كان العرب يلحدون إلى رجل اعجمى زعموا انه يعلم النبى صلى الله عليه وسلم وما يجيء به من أخبار الامم ونحوها ، فرد الله عليهم بالآيه السابقة فتلك مغالطة منهم قال تعالى (أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة واصيلا) الفرقان ٤ - ٥ .

(٥) الصافات / ٣٦ .

(٦) إعجاز القرآن للرافعى ١٧٠ - ١٧١ .

(٧) الفرقان / ٨ .

إلى آيات كثيرة فى نحو هذا تدل على أنهم كانوا متحيرين فى أمرهم متعجبين من عجزهم يفزعون الى نحو هذه الأمور : من تعليل وتحذير ومنافعه بما وقع التحدى اليه ، ووجد الحث عليه .

وإذا كان قد تحداهم بالمعارضة مرة بعد مرة وهى تبطل دعوته فمعلوم أنهم لو كانوا قادرين عليها لعقلوها فإنه رفع وجود هذا الداعى التام المؤكد إذا كانت القدرة حاصلة وجب وجود المقدور ثم هكذا القول فى سائر اهل الارض . فهذا القدر يوجب عملا مبينا لكل احد يعجز من جميع أهل الارض عن ان ياتوا بمثل هذا القرآن بحيلة وبغير حيلة وهذا ابلغ من الآيات التى يكرر جنسها كإحياء الموتى ، فإن هذا لم يات احد بنظيره .

حكمة هذا التحدى :

تتلخص حكمة هذا التحدى وذكره فى القرآن الكريم فى عدة أمور هى :

* شهادة التاريخ فى كل عصر بعجز العرب عنه .
* حفظ اللغة العربية واستخراج علومها .
* القرآن يقرر أسمى قواعد الحق الإنسانى بإقراره للمعارضة وحمايته لها . وفيما يلى بيان ذلك :

أ) شهادة التاريخ بعجز العرب عنه :

يقول الرافعى "إن حكمة هذا التحدى وذكره إنما هى أن يشهد التاريخ فى كل عصر بعجز العرب عنه وهم الخطباء اللد والفصحاء اللسن وهم كانوا فى المهد الذى لم يكن للغتهم خير منه ، ولا خير منهم فى الطبع والقوة فكانوا مظنة المعارضة والقدرة عليها حتى لا يجىء بعد ذلك فيما يجيىء من الزمن مولد أو اعجمى أو كاذب أو منافق اوذو غفلة فيزعم أن العرب كانوا قادرين على مثله وانه غير معجز وأن عسى أن لا يعجز

عنه الا الضعيف ويالله من سمو هذه الحكمة وبراعة هذه السياسة التاريخيه لأهل العصر" (١) .

والذى يبدو لى على ضوء ما سبق أن الحكمة فى هذا التحدى أن يشهد التاريخ فى كل عصر بعجز العرب عن معارضة القرآن رغم فصاحتهم وقوة عارضتهم وقد أخبر الله عنهم أنهم "قوم خصمون"(٢) وقال "وتنذر به قوما لدا" (٣) وعلم أيضا ما كانوا يقولونه من وجوه اعتراضهم على القرآن مما حكى الله عز وجل عنهم من قولهم : "لو نشاء لقلنا هذا إن هذا إلا أساطير الأولين" (٤) وقولهم "ما هذا إلا سحر مفترى وما سمعنا بهذا فى آبائنا الأولين (٥) إلى آيات كثيرة فى نحو هذا تدل على انهم كانوا متحيرين فى أمرهم متعجبين من عجزهم ، يفزعون إلى نحو هذه الأمور : من تعليل وتعذير ومدافعة بما وقع التحدى اليه ووجد الحث عليه .

وهذا التحدى ليس قاصرا على زمن دون زمن بل هو مستمر على جميع العصور وهذا مما يشهد بإعجاز القرآن الكريم .

ومن حكم التحدى أيضا أن لا يدعى متولد أو اعجمى أو كاذب أو منافق أو ذو غفلة أن العرب كانوا قادرين على أمثال هؤلاء ومن مظاهر التحدى أيضا أن القرآن الكريم وضح لهم طريقة التحدى واقتصر على معارضة القرآن أو الإتيان بمثله أو بمثل جزء منه (٦) .

---

(١) إعجاز القرآن للرافعى ص ١٦٩ (٢) الزخرف ٥٨ .
(٣) مريم ٩٧ . (٤) الأنفال ٣١ .
(٥) القصص / ٣٦ .
(٦) إعجاز القرآن للباقلانى / ٣٢ .

ب) ثمرته في حفظ اللغة العربية :

لقد كان لهذا التحدى ثمرته فى حفظ اللغة العربية واستخراج علومها وما كان أصل ذلك إلا بالتحدى بها فإن من حكمة هذا التحدى أن يدعوهم إلى ، النظر فى أساليبه ووجه نظمه وتدبير طريقته وأن يروزوا انفسهم منها (٢) ويزنوها به ، حتى إذا استيقنوا العجز واطرقوا عليه كان ذلك سببا لمن يحفظهم على اللغة إلى استبانة وجوه الإعجاز فكشف لهم عن فنون البلاغه وتاثرت إلى حيث بلغوا من تتبع كلام العرب والاستقصاد فيه والكشف عن محاسنه ، واثمر بعض ذلك عن بعضه ، واعان على كل ، حتى اجتمعت الماده وتلاحقت الاسباب ولولا ما صنعوا لخرج الناس إلى العجمه ولذهبت هذه الآداب ولما بقى فى الأرض إلى اليوم من يقول إن القرآن معجز .

وذلك أن العرب لم يكن لهم من البلاغة إلا علم الفطرة ، ولم يكن لمن بعدهم من هذه الفطرة إلا ما ترجمه الوراثه من أوليتهم ، وهو شيء تتولاه العصور ، بالتحول والزيغ وتداب عليه بالنقص والاختلاف حتى يخرج عن أصله إلى أن يكون اصلا جديدا ثم إلى أن تنشق منه أصول اخرى وهى الطريقة التى تنشأ بها ، اللغات وتستمر وتذهب فى الاشتقاق ، فلا يبقى على ذلك من البلاغة العربية ، شيء ينفذ إليه العلم أو تستطيع القدره إذ تكون العربية نفسها قد درست واندثرت بقاياها فى القبور والأنقاض .

ومن البين ان اخص أسباب الارتقاء كائن فى الغلبة والتمييز والانفراد حيث وجدت ، فلو جاء القرآن بمثل كلام العرب فى الطريقة والمذهب وفى الصفة والمنزلة لما صلح ان يكون سببا لما أحدثه ولذهب مع كلام العرب ثم لتدافعته

---

(١) إعجاز القرآن للباقلانى / ٣٢ .

(٢) يروضوا انفسهم .

العصور والدول وإن لم يذهب ثم يبقى أمره كبعض ما ترى من الأمور الإنسانية لا ينفرد ولا يستعلى .

فتدبر أنت الأمر العجيب الذى كان الأصل فيه نزول آيات التحدى وتأمل كيف اثبت القرآن إعجازه على الدهر بهذه الآيات القليلة وكيف ضمن بما وراءها نشأة العقول التى تدرك هذا الإعجاز وتقربه وتكون مادة لتاريخه الأبدى لا تضعف ولا تنحسم ، وهل بعد هذا من ريب فى قول الله تعالى يخاطب الرسول صلى الله عليه وسلم "وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم" (١) فقد علم الله هذا الأمر كيف يكون وكيف يثبت فقدره بعلمه وفصله بحكمته قبل أن يقع فانظر إلى آثار رحمة الله (٢) .

مما سبق ندرك حكمة هذا التحدى والتى تتمثل فيما يأتى :

* حفظ اللغة العربية واستنباط علومها نتيجة البحث والنظر فى أساليب القرآن ونظمه وتدبر طريقته .
* وهذا التحدى دفع إلى هذه الدراسة والعرب لم يكن لهم من البلاغة إلا علم الفطرة ولم يكن لمن بعدهم من هذه الفطرة إلا عن طريق الوراثة التى تتولاها العصور بالتحول والتغيير .
* ولو أن القرآن لم يتحد العرب لكان كلامه مثل كلامهم ولاندثر مع سائر الكلام أو بقى ولم تكن له هذه الميزة لاينفرد ويستعلى على غيره ولكن القرآن باق على الزمن خالد ، لأنه من عند العليم الحكيم الذى علم بهذا الأمر كيف يكون ، وكيف يثبت وقال للرسول صلى الله عليه وسلم "وإنك لتلقى من لدن حكيم عليم" .

---

(١) النمل / ٦

(٢) إعجاز القرآن للرافعى ص ٢٣٩ - ٢٤٠ .

القرآن يقرر اسمى قواعد الحق الإنسانى بإقراره للمعارضة وحمايتها :

للتحدى حكمة اخرى قرر بها القرآن اسمى ما انتهت إليه عقول الحكماء واهل التشريع يقول الرافعى "لا ثقة برأى إلا بعد تمحيصه ونقده ،ولن يكون النقد نقدا إذا كان من انصارك ومؤازريك بل هو النقد إذا جاء من المعارضين لك والمنكرين عليك ، ثم لا يتم له معناه إلا إذا كان من اقواهم فكرا وأصحهم رايا وابلغهم حكما . فإن لم ينقدك هذا ومثله فادفعهم إليه دفعا وتحدهم تحديا وارمهم بالعجز إذا لم يفعلوا ، فإن الحجة لله ولو هى لم وانما ننحاز إلى الغالب منكما ، وحتى الحجة الصحيحه فإنها ابدا فى حاجة ماسة إلى حجة اخرى تؤيدها أو تفسرها ، أو تحدها أو تمنع اللبس بينها وبين غيرها ، فكل شىء فإنما صحته وتمامه فى معارضته ونقده إذ أن المعارضة نصف الحق وان هى لم تكن حقا ، لانها تبينه وتجلوه وتقطع الألسنه ، وتنفى عنه الظنة .

وهنا يظهر لك السر المعجز الغريب البالغ منتهى الدقة فى القرآن فإن هذا الكتاب من دون الكتب السماوية والإرضية هو وحده الذى انفرد بتحدى الخلق وإثبات هذا التحدى فيه وبذلك قرر اسمى قواعد الحق الإنسانى ووضع الأساس الدستورى الحر لإيجاد المعارضة وحمايتها واقام البرهان لمن آمنوا على من كفروا ، وكان العجز عنه حجة دافعه معها من القوة كالذى مع الحجة الأخرى فى إعجازه فسما بالحجتين جميعا ، وذلك هو المبدأ الذى لا استقلال ولا حرية بغيره .

وما الصواب إذا حققت إلا انتصاره فى معركة الآراء ولا الخطا إلا انه اندحار فيها ، لا اقل ولا أكثر ، وبهذا وحده يقوم الميزان العقلى فى هذه الإنسانية (١) .

---

(١) تحت راية القرآن للرافعى ص ٣١٨ - ٣١١ وينظر إعجاز القرآن للرافعى هامش رقم (١) الطبعة الثانية ص ٢٣٩ .

مما سبق أن الرأى الذى يوثق فيه هو الذى ينقد ويمحص ، والنقد والتمحيص يكون الرأى الآخر ومن أقوى أصحابه عقلا وأقواهم حجة فإذا لم ينتقد احد رأيك فادفعه إليه دفعا وتحداه به تحديا وا رمه بالعجز إذا لم يقبل ومن هنا جاء تحدى القرآن الكريم للعرب وأقام البرهان والدليل لمن آمنوا به على من كفر .

وبهذا وضع الرافعى الأساس الدستورى الحر لإيجاد المعارضة وحمايتها واحترام رأيها ومقارعة حجتها بحجة مثلها للمعنيين ، الصواب من الخطأ فالصواب هو الانتصار فى معركة الآراء والخطأ اندحار فيها .

ولم تكن الكتب السماوية الأخرى معجزة لأن الله عز وجل لم يصفها بما وصف به القرآن الكريم ، كما أنه لم يقع التحدى إليها كما وقع إلى القرآن .

ولمعنى آخر ، وهو أن ذلك اللسان لا يأتى فيه من وجوه الفصاحة ما يقع به التفاضل الذى ينتهى إلى حد الإعجاز .

ثانيا : ثبوت العجز عن معارضته :

قرر الرافعى ثبوت العجز عن معارضة القرآن فى قوله الذى سبق أن - أومأنا إليه : "فإنما صحته وتمامه فى معارضته ونقده إذ المعارضة نصف الحق وإن هى لم تكن حقا لأنها تبينه وتجلوه وتقطع عنه الألسنة وتنفى عنه الظنة ، ومن هنا يظهر لك السر المعجز الغريب البالغ منتهى الدقة فى القرآن"(1) .

وقد أشار الباقلانى إلى ذلك فى قوله "كيف يجوز أن

---

(1) تحت راية القرآن للرافعى ص ٣١٩ .

يقدروا على معارضة القرآن القريبة السهلة عليهم وذلك يدحض حجته ويفسد دلالته ويبطل امره فيعدلون عن ذلك إلى سائر ما صاروا إليه من الأمور التي ليس عليها من المنابذة والمعاداة ويتركون الأمر الخفيف ؟ هذا ما يمتنع وقوعه في العادات ولا يجوز اتفاقه من العقلاء" (١) .

ويمكن ان يقال ، إنهم لو كانوا قادرين على معارضته والإتيان بمثل ما اتى به لم يجز ان يتفق منهم ترك المعارضة وهم على ماهم عليه من الذرابة والسلاقة (٢) ، والمعرفة بالفصاحة وهو يستطيل عليهم بانهم عاجزون عن مباراته وانهم يضعفون عن مجالاته ويكرر فيما جاء به ذكر عجزهم عن مثل ما ياتي به ، ويقرعهم ويؤنبهم عليه ويدرك آماله فيهم وينجح ما سعى له في تركهم المعارضة " (٣) .

وقد اعتبر الرماني ترك المعارضة مع توفر الدواعي وشدة الحاجة وجها من وجوه الإعجاز يقول ، لو ان إنسانا توفرت دواعيه إلى شرب ماء بحضرته من جهة عطشه واستحسانه لشربه وكل راع يدعو إلى مثله وهو مع ذلك ممكن له فلا يجوز الا تقع شربة منه حتى يموت عطشا لتوفر الدواعي على ما بينا فإن لم يشربه مع توفر الدواعي له دل ذلك على عجزه عنه فذلك توفر الدواعي إلى المعارضة لما لم تقع المعارضة دل ذلك على العجز عنها" (٤) .

---

(١) إعجاز القرآن للباقلاني ص ٢٢ تحقيق السيد صقر .
(٢) في اللسان ج ١٢ / ٢٥ وسلقه بلسانه سلقا : أسمعه ما يكره فاكثر وسلقه بالكلام سلقا إذا آذاه وهو شدة القول باللسان وفي التنزيل (سلقوكم بالسنة حداد) أي بالغوا فيكم بالكلام وخاصموكم في الغنيمة أشد من حجة وابلغها.
(٣) إعجاز القرآن للباقلاني ص ١٣ .
(٤) النكت في إعجاز القرآن لأبي الحسن بن عيسى الرماني ص ٦٩-١٠١ والخطابي في كتابه بيان إعجاز القرآن ص ١٩-٢٠

مما سبق ندرك أن الثلاثة - الرماني والباقلاني والرافعي - متفقون في أن العجز عن معارضة القرآن حجة دامغة وان امتناعهم عن المعارضة مع سهولتها وخفتها دليل عجزهم وفي الوقت نفسه من اكبر الأدلة على إعجاز القرآن .

انتفاء ما يمنعهم من المعارضة :

ثم يبين الرافعي انتفاء ما يمنعهم من المعارضة وهو في ذلك ينقل كلام الجاحظ حيث يقول : "بعث الله محمدا اكثر ما كانت العرب شاعرا وخطيبا واحكم ما كانت لغة واشد ما كانت عدة قد عما اقصاها وادناها إلى توحيد الله وتصديق رسالته فرعاهم بالحجة فلما قطع العذر وازال الشبهة وصار الذى يمنعهم من الإقرار الهوى والحمية دون الجهل والحيرة حملهم على حظهم بالسيف فنصب لهم الحرب ونصبوا وقتل من عليهم واعلامهم واعمامهم وبنى اعمامهم وهو فى ذلك يحتج عليهم بالقرآن ويدعوهم صباحا ومساء إلى ان يعارضوه ان كذبا بسورة واحدة أو بآيات يسيرة فكلما ازداد ، تحديا لهم بها وتقريعا لعجزهم عنها ، تكشف من نقصهم ما كان مستورا فظهر منه ما كان خفيا فحين لم يجدوا حيلة ولا حجة قالوا له : أنت تعرف من اخبار الأمم مالا نعرف ، فلذلك يمكنك ما لا يمكننا .

قال : فهاتوها مفتريات . فلم يرم ذلك خطيب ولا طمع فيه شاعر ولو طمع فيه لتكلفه ولو تكلفه لظهر ذلك ولو ظهر لوجد من يستجيده ويحامى عليه ويكابر فيه ويزعم انه قد عارض وقابل وناقض فدل ذلك العاقل على العامل على عجز القوم مع كثرة كلامهم واستجابة لغتهم وسهولة ذلك عليهم وكثرة شعرائهم وكثرة من هجاه منهم وعارض شعراء أصحابه وخطباء امته لأن سورة واحدة وآيات - يسيره كانت انقض لقوله وافسد لأمره وابلغ فى تكذيبه واسرع فى تفريق اتباعه من بذل النفوس والخروج من الأوطان وإنفاق الأموال .

وهنا من جليل التدبير الذى لا يخفى على من هو دون قريش والعرب فى الراى والعقل بطبقات ولهم القصيد العجيب والرجز الفاخر والخطب الطوال البليغة والقصار الموجزة ولهم الأسجاع والمزدوج واللفظ المنثور ، ثم تحدى به أقصاهم بعد ان اظهر عجز أدناهم .

فمحال - اكرمك الله - أن يجتمع هؤلاء كلهم على الغلط فى الأمر الظاهر والخطأ المكشوف البين مع التقريع بالنقص والتوقيف على العجز وهم اشد الخلق أنفة وأكثرهم مفاخرة والكلام سيد عملهم وقد احتاجوا إليه والحاجة تبعث على الحيلة فى الأمر الغامض فكيف بالظاهر الجليل المنفعة ، وكما أنه محال ان يطبقوا ثلاثا وعشرين سنة على الغلط فى الامر الجليل المنفعة فذلك محال أن يتركوه وهم يعرفون ويجدون السبيل إليه وهم يبذلون أكثر منه " (١) .

ويمكن ان نوجز انتفاء ما يمنعهم عن المعارضة كما أوردها الرافعى فى عبارته السابقة فيما يأتى :

فى وقت بعثة النبى صلى الله عليه وسلم كثر شعراء العرب وخطباؤهم ، كما كانت قريش افصح العرب لغة وأشدهم عدة ، فدعاهم القرآن ان يأتوا بمثله او بمثل عشر سور من مثله أو بسورة من مثله فعجزوا مع وفرة الدواعى وسهولة ذلك عليهم وكثرة شعرائهم وكثرة من هجاه منهم ، فلو أنهم أتوا بسورة واحدة لكان ذلك أبلغ فى تكذيبه وأسرع فى تفريق أتباعه مما فعلته الحروب .

---

(١) إعجاز القرآن للرافعى ص ١٧١ - ١٧٢ وينظر إعجاز القرآن للباقلانى ص٣٩ .

ولو انهم استطاعوا ان ياتوا بذلك لانفض الناس من حول الرسول صلى الله عليه وسلم باسرع وسيلة . اما وانهم لم يفعلوا فقد ثبت عجزهم ، وبالتالى إعجاز القرآن الكريم . والرافعى بذلك يأخذ عن الباقلانى الذى راى ، أن العرب كان يثافر شعراؤهم بعضهم بعضا ويتنافسون على الفصاحة والخطابة ويتفاخرون فيما بينهم فلا يجوز لأمة مثلهم أن تتغافل عن معارضة القرآن لو كانوا قادرين على ذلك تحداهم أو لم يتحداهم .

فلما لم نرهم احتجوا عليه بكلام سابق ولا عارضوه به علم انه لم يكن إلى ذلك سبيل ولو كان وجد له مثل لنقل إلينا ولعرفناه ، كما نقل إلينا اشعار اهل الجاهلية وكلام الفصحاء والجهلاء وغير ذلك من أنواع بلاغتهم .

عدم معارضتهم للقرآن وسببه :

اشار الرافعى إلى اسس المعارضة الممكنة التى يطمع فيها وانه لابد من أن يتوافر لصاحبها ما ياتى :

* أن يكون لصاحبها جهة من جهات الكلام لم تؤخذ عليه وفن من فنون المعنى لم يستوف قبله ، وباب من ابواب الصنعة لم يصفق من دونه .
* وأن تكون وجوه البيان له معرضة يأخذ فى هذا ويعدل عن ذلك ، حتى يستطيع أن يعارض الحسنة بالحسنة ، ويضع الكلمة بإزاء الكلمة ، ويقابل الجملة بالجملة .
* المعارضة لا تكون شيئا يسمى حتى تكون بمثل الأسلوب والنظم . ثم يبين الرافعى الأسباب التى اختص بها اسلوب القرآن والتى قطعت العرب عن المعارضة ، وهى :

(١) الفصاحة .
(٢) أسلوب القرآن مادة الإعجاز .
(٣) غزارة معانيه .

(٤) الكمال اللغوى .
(٥) معنى العجز فى الكثير والقليل من القرآن .
(٦) التحدى ممتد إلى جميع العصور .
(٧) الصوت المطرب البالغ فى التطريف .
(٨) ما امتاز به أسلوب القرآن من صفات أخرى ، السهولة والرهبة .

وفيما يلى بيان تلك الأسباب التى جعلت العرب وغيرهم يتخذلون عن معارضة القرآن على مر العصور .

ا- الفصاحة :
جاء القرآن الكريم افصح كلاما وابلغهم لفظا وأسلوبا ومعنى واعجزهم من الجهة التى هى اكبر منهم ومن جهة الكلام الذى هو سيد عملهم "بل تصدعوا عنه وهم أهل البسالة والبأس وهم مساعير الحروب ومغاويرها ، وهم كالحصى عددا وكثرة وليس لرسول الله صلى الله عليه وسلم إلا نفسه وإلا نفر قليل معه ، لم يستجيبوا له ، ولم يبذلوا معادتهم ونصرهم إلا بعد أن سمعوا القرآن وراوا منه ما استهواهم وكثرهم وغلبهم على انفسهم فكانت الكلمة منه تقع من احدهم وان لها ما يكون للخطبة الطويلة والقصيدة العجيبة فى قبيلة باجمعها . ولهذا قام كل فرد منهم فى نصرة النبى صلى الله عليه وسلم وكانه فى نفسه قبيلة فى مقدار حمايتها ونجدتها وهذا هو حق الشعور الذى كان يشعر به كل مسلم فى السرايا والجيوش التى انصبت على الأمم اول عهدهم بالفتوح حتى نصروا بالرعب من بعيد وقريب ، وكانما كانت انفسهم تحارب قبل أجسامهم ، وتعد المراصد لعدوهم من نفسه ، وتسلبه ما لا يتسلبه إلا الموت وحده ، فالعرب يريدون ان يموتوا فيحيوا ويريد أعداؤهم أن يحيوا فيموتوا .

وإلا فاين تلك الشراذم العربية القليلة من جيوش الفرس

والروم وهى فيها كالشامة فى جلد البصير ، ولو وقعت عليها ذبابة لكانت عسى أن تخفيها .

على أن من أعجب ما فى العرب أنهم كانوا يتخاذلون عن قتال النبى صلى الله عليه وسلم وجماعته على كثرة ما استنفرتهم قريش لحربه ، وما اعترضته فى حجهم ومواسمهم ، وعلى ما كانوا يعرفون من مغبة هذا الأمر ، وأنه ذاهب بطريقتهم لا محالة ، فلم يجمعوا كيدهم ولم يصدموه بل استأنسوا به على أمره وسرقوا فرصة كانت لهم ممكنة ، وتركوا أسباباً كانت منهم قريبة ، وليس فى ذلك سبب وراء القرآن ، فإن كل آية كانوا يسمعونها كانت تصيبهم بالشلل الاجتماعى وتخذلهم فى أنفسهم ، فلا يحسون منها إلا تراجع الطبع وفتور العزيمة ويكسو ذلك عليهم أمرهم ، فتقع الحرب فى أنفسهم بديعا بين الوهم واليقين فإن نصبوها له بعد ذلك أقدموا عليها بنفوس مخذولة وعزائم واهية ، وخواطر منقسمة ، وقاموا فيها وهم يعرفون آخر النزوة وعاقبة الجولة .

ونزل العرب على الوجه الذى بيناه فظنه العرب أول وهلة من كلام النبى صلى الله عليه وسلم وروحوا عن قلوبهم بانتظار ما أملوا أن يطلعوا عليه فى آياته البينات ، كما يعترى الطبع الإنسانى من الفترة بعد الاستمرار والتراجع بعد الاستقرار ، ومن اضطراب القوة البيانية بعد إمعانها وجماحها الذى لابد منه بعد ارعانها ، ثم ما هو فى طبع كل بليغ من الاختلاف فى درجات البلاغة علوا ونزولا على حسب ما لابد منه فى اختلاف المعانى وتباين الأحوال النفسية المجتمعة عليها والتفاوت فى اغراضها وترك آدائها مما ينقسم إليه الخطاب ويتصرف القول فيه ، ومروا ينتظرون وهم معدون له التكذيب متربصون به حالة من تلك الأحوال فإذا هو قبيل غير قبيل الكلام وطبع غير طبع الأجسام وديباجة السماء فى استوائها لا وهى ولا صدع ، وإذا عصمة قوية وجمرة متوقدة ، وأمر فوق الامر وكلام يحاورون فيه بدءا وعاقبة .

وقد كان من عاداتهم ان يتحدى بعضهم بعضا فى المساجلة والمقارضة بالقصيد والخطب ثقة منهم بقوة الطبع ولأن ذلك مذهب من مفاخرهم يشتغلون به ويذيع لهم حسن الذكر وعلو الكلمة ، وهم مجبولون عليه فطرة ولهم منه المواقف والمقامات فى اسواقهم ومجامعهم فتحداهم القرآن فى آيات كثيرة أن يأتوا بمثله او بعضه وعجزوا عن ذلك ومن طباع النفس التى جبلت عليها انها متى خذلت وكان خذلانها من قبيل ما تعده اكبر فخرها واجمل صنعها واعظم همها ، واصابها الوهن فى ذلك ، وضربها الخذلان باليأس فقلما تنفعها نافعة بعد ذلك او تجذبها مرة أخرى ... فمن ثم لم تقم للعرب قائمة بعد أن أعجزهم القرآن من جهة الفصاحة التى هى اكبر امرهم ومن جهة الكلام الذى هو سيد عملهم (١) .

من ذلك ندرك ان دليل فصاحة القرآن الكريم تأثيره العميق فى نفوس العرب المسلمين منهم وغير المسلمين .

فمن تأثيره فى المسلمين ان دفعهم لقتال أعدائهم دفعا قويا وكان نفوسهم تقاتل قبل أجسادهم واقبلوا على الموت يحبونه كحبهم للحياة أو أشد .

واما تأثيره فى غير المسلمين فإنهم كانوا إذا سمعوا آياته تأثروا بها وأصيبوا بالشك فى عقيدتهم واقبلوا على الحرب بنفوس واهية متخاذلة لأنهم لا يدركون لها غاية ولا يعرفون لها هدفا .

نزل القرآن فى أول امره وكان العرب يظنون فى أول الأمر انه من كلام محمد صلى الله عليه وسلم وظنوا أنهم سيأتون

---

(١) إعجاز القرآن للرافعى ص ١٦٧ - ١٦٨ بتصرف وينظر بيان إعجاز القرآن للخطابى ص ١٢٤ .

بمثله ، فإذا هو قبيل غير قبيل كلامهم وطبع غير طبع الأجسام وإذا هو أمر فوق كل أمر وكيان يحاورون فيه بداء وعاقبة فعجزوا عن الإتيان بمثله مع أنه كان من عادتهم أن يتحدى بعضهم بعضا فى المساجلة والمعارضة والخطب . ورغم أن القرآن قد تحداهم فإنهم قد عجزوا عن الإتيان بمثله لأنه كلام فوق كلامهم فصاحة وقوة .

وهذه الفصاحة التى امتاز بها القرآن تراها فى كل المواضع لأن عجيب نظمه وبديع تأليفه لا يتفاوت ولا يتباين على ما يتصرف إليه من الوجوه من ذكر القصص ومواعظ وحكم وأحكام ووعد ووعيد وأخلاق كريمة وغير ذلك .

وإننا نجد كلام البليغ والشاعر المفلق يختلف على حسب اختلاف هذه الأمور فمن الشعراء من يجود فى المدح دون الهجو ومنهم من يسبق فى التقريظ دون التأبين ومنهم من يجود فى بعض النواحى من وصف الروضة أو الغزل أو الحكم أو غير ذلك ولذلك ضرب المثل بامرئ القيس إذ ركب وبالنابغه إذا رهب وبزهير إذا رغب - مثل ذلك يختلف فى الخطب والرسائل وأجناس الكلام ومتى تأملت الشعر الشاعر البليغ رأيت التفاوت فى شعره على حسب الأحوال التى يتصرف فيها فيأتى بالغاية فى البراعة فى معنىً فإذا جاء إلى غيره قصر عنه وبان الاختلاف على شعره .

ولذن تأملت نظم القرآن وجدت أن جميع ما يتصرف فيه من الوجوه لا تفاوت فيها ولا انحطاط من المنزلة العليا من البلاغة (١) .

(١) إعجاز القرآن للباقلانى ص ٣٩ - ٤٠ .

٣- أسلوب القرآن مادة الإعجاز :

يقول الرافعي : إن هذا الأسلوب إنما هو مادة الإعجاز العربي في كلام العرب كله ليس من ذلك شيء إلا وهو معجز وليس من هذا شيء يمكن أن يكون معجزا وهو الذي قطع العرب دون المعارضة واعتقلهم عن الكلام فيها وضربهم بالحجة من أنفسهم وتركهم على ذلك يتلكأون .

ثم هو الذي مثل لهم اليأس قائما لا يتصل به الطمع وصور لهم العجز غالبا لاتنال منه القدرة فأحرز طباعهم في ناحية من الضعف والاستكانة حتى كأنها غير طباعهم في تألمها بعد انقضائها وتراجعها بعد مضائها وقد كانوا يتساجلون الكلام ويتعارضون الشعر ... فلما ورد عليهم أسلوب القرآن رأوا ألفاظهم بأعينها متساوقة فيما ألفوه من طرق الخطاب وألوان المنطق ليس في ذلك أعنات ولا معاياة غير أنهم ورد عليهم نظمه ووجوه تراكيبه ونسق حروفه في كلماته وكلماته في جملها ونسق هذه الجمله في جملته ، ما أذهلهم من أنفسهم من هيبة رائعة وروعة مخوفة وخوف تقشعر منه الجلود حتى أحسوا بضعف الفطرة اللغوية أو تخلف الملكة المستحكمة ورأى بلغاؤهم انه جنس من الكلام غير ما هم فيه وأن هذا التركيب هو روح الفطرة اللغوية فيهم (١).

من ذلك ندرك أن أسلوب القرآن وتركيبه يمثل الكمال اللغوي الذي عرفه العرب كما يمثل تلك الفطرة اللغوية ، وأن هذا الأسلوب هو الذي قطع العرب عن المعارضة وضربهم بالحجة من أنفسهم وتركهم على ذلك يتلكأون وتركهم في دهشة ويأس ولأنهم قد أحسوا برهبته وخوف تقشعر منه الجلود جعلهم يشعرون بضعف فطرتهم اللغوية ورأى بلغاؤهم أن هذا التركيب جنس من الكلام غير ما هم فيه .

---

(١) إعجاز القرآن للرافعي ص ١٨٨ وينظر بيان إعجاز القرآن للخطابي ص٣٦

٣- غزارة معانيه :

يرى الرافعى أن من خصائص إعجاز القرآن الكريم غزارة معانيه ، يقول إننا نرى ، أسلوب القرآن من اللين والمطاوعة والمرونة فى التأويل بحيث لا يصادم الآراء الكثيره المتقابله التى تخرج بها طبائع العصور المختلفه فهو يفسر فى كل عصر بنقص من المعنى وزيادة فيه .

وقد فهمه عرب الجاهلية الذين لم يكن لهم إلا الفطرة وفهمه كذلك من جاء بعدهم من الفلاسفه وأهل العلوم وفهمه زعماء الفرق المختلفة على ضروب من التاويل وأثبتت العلوم الحديثه كثيرا من حقائقه التى كانت مغيبه ... وإن ما عهد من كلام الناس ، لا يتحمل كل ذلك ولا بعضه (١) .

هذا " وإن فيه من المعانى الكثيره والإغراض الوافره ، مما لو كان فى كلام المنطق لظهر عليه صنع النفس الإنسانية لا محالة بأوضح معانيه وأظهر ألوانه وبصفات كثيرة من أحوال النفس (٢) .

وليس شيء فى أسلوب القرآن فى بعض مواضعه مما يدخله فى شبه من كلام ، أو يرده إلى طبع معروف من طباع البلغاء وإلى هذه الحكمة يشير الله تعالى بقوله " أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه إختلافا كثيرا (٣) .

ولقد أحس العرب بهذا المعنى واستدهمه بلغاؤهم ولولاه ما أفحموا ولا انقطعوا من دونه لأنهم رأوا جنسا من الكلام غير ما تؤديه طباعهم (٤) .

---

(١) إعجاز القرآن للرافعى ص ٢٠٦ - ٢٠٧ .
(٢) السابق ص ٢٠٧ .
(٣) النساء / ٨٢ .
(٤) إعجاز القرآن للرافعى ص ٢٠١ ، ٢٠٢ .

٤ - الكمال اللغوى :

لقد قطع القرآن الكريم على من يريد ان يعارضه امر الخيار فى الوجه الذى يعارضه لوجود الكمال اللغوى فيه يقول الرافعى "إن مذهب الحيلة على التاثير مذهب واسع لا يضيق بالبلغاء كلهم إذا هم تكافاوا فى الصناعة والبصر بأسبابها، لأن كل واحد منهم ينتحى بكلامه جهة من جهات النفس ويأخذ فى سبيل من طباعها وعاداتها وهو ، لابد واجد فى كلام غيره موضع فتره من الطبع وغفله من النفس او تراكم من الاستقراء يبعث عليه باعث من امور كثيرة تعترى البلغاء فى صناعتهم فيضطرب لها بعض كلامهم ويضعف بعض منازعتهم ويقع التفاوت فى الأسلوب الواحد ضعفا وقوة فإذا هو اصاب ذلك فعسى ان يقابله من نفسه بطبع قوى ونفس مجتمعه ووزن راجح او شيء من اشباهها فيكون قد ظفر بمدخل يسلك منه إلى المعارضة ويظهر به فضل كلام على كلام ومقدار طبع على طبع وقوة نفس على نفس .

ولولا ذلك وانه من طبائع البلغاء ومما لا سلم منه ذو طبع لما امكن ان يتناقض شاعران او يستاجل راجزان او يتراسل كاتبان اويتعارض خطيبان او يواجه كلاما كلاما فى معرض المقابلة او يرجح به فى ميزان المعادلة :

اما ان يكون الكلام الذى يقصد إليه بالمعارضة كهذا القرآن ، احكم دقيقه ، وجليله وامتنع كثيره وقليله واخذ منافذ الصنعة كلها واستبرا المعنى الذى هو فيه إلى غايته ، وقطع على صاحبه امر الخيار فى الوجه الذى يعارضه منه وكان من وراء ذلك بابا واحدا فى امتناعه لا موضع فيه للتصفح ولا مغمر للغاف ولا مرد للمقالة وقد توثقت علاقته وترادفت خصائصه وتواردت على ذلك دقائق ثم كانت جملة قد احرزت عناصر الفطرة البيانية وجمعت فنونها واحتوت من الكمال الفنى ما كان إحساسا صرفا فى نفوس أهله ويشعرون به وجدانا لا يقدرون على ابهاره بعاناة فلذلك مما لا سبيل للنفس

إلى المكابرة فيه بحال من الأحوال أو ابقائه بالمعارضة ومطاولته بالقدرة على مثله إذ هو بطبيعته المعجزة التى لاترى فيه النفس إلا مثالا للعلم لا تعرف به مقدار ما انتهت إليه من أحكام العمل (١) .

ولما كان تقدير الكلام فى بلاغته وفصاحته إلى الإحساس وحده وخاصة فى أولئك العرب الذين من لين تاملتهم ورايتهم كأنهم خلقوا خلقا لغويا وكان القرآن قد جمع فى أسلوبه أرقى ما تحس به الفطرة اللغوية من أوضاع البيان ومذاهب النفس إليه فقد احسوا بعجزهم عما امتنع مما قبله وكان كل امرئ منهم كأنما يحمل فى قرارة نفسه برهان الإعجاز وآية حمل كل إفك ووزر على طرف لسانه ، ولهذا انقطعوا عن المعارضة مع تحديهم إليها على طول المدة وانفساح الأمر وعلى كثرة التقريع والتأنيب وعلى تصغير شأنهم وتحقيرهم وذلك بالنزول عن التحدى قبل القرآن كله إلى عشر سور مثله إلى عشر مفتريات لا حقيقة فيها إلى سورة واحدة من مثله ولو هم ارادوا هذه السورة الواحدة ، ما استطاعوا لأن إحساسهم منصرف إلى أصل الكمال اللغوى فى القرآن مستغرق فيه فلا يرون المعارضة تكون إلا على هذا الأصل أو تتحقق إلا به وهو شئ لا تناوله القدرة لأنه على ظهوره فى أسلوب باطن فى نفوسهم تقف عليه المعرفة ولا تبلغه النصفه كالروائح والطعوم والألوان وما إليها (٢) .

مما سبق يتضح لنا أن القرآن الكريم قد قطع على من يريد أن يعارضه أمر الخيار فى الوجه الذى يعارضه وذلك لوجود الكمال اللغوى فى القرآن الكريم والذى يبدو فيما يلى :

* بلاغة أسلوبه وسلامة تركيبه وإحكامه دقيقه وجليله .
* سمو نظمه وسلامة تركيبه وأخذه منافذ الصنعة كلها .

---

(١) إعجاز القرآن للرافعى ص ١٨٩ - ١٩٠ .
(٢) إعجاز القرآن للرافعى ص ١٩٢ .

* واستكماله المعنى الذى هو فيه إلى غايته واحرازه عناصر الفطرة البيانية .
* واحتوائه الكمال الفنى الذى اثر فى النفوس ، فكان إحساسا صرفا فيها يشعرون بمعانى القرآن فى نفوسهم ولا يقدرون على اظهار بيانا .

ولهذه الأسباب عجزوا عن المعارضة فامتنعوا عنها رغم دعوة القرآن الكريم إليها وتحديهم بها واحتقاره من شانهم .

٥ - التحدى ممتد إلى جميع العصور وشامل للسور القصار والطوال :

لو ذهبوا إلى معارضة السورة القصيرة على قلة كلماتها وعلى انها نفس واحد ، وجملة متميزة لضاق بهم الأمر بمقدار ما يظن الجاهل انه يسعهم فإن ذلك الإحساس يعجزهم ولا يزايلهم ولا يبرح يورد عليهم محاسن ذلك الأسلوب جملة وتغمرهم بها ضربة واحدة تنثال من ها هنا وها هنا فلا يكون إلا أن يقروا متلددين (١) وقد حاروا فى اى جهة ياخذون وأى جانب يتوجهون إليه ولا يكون من هممهم تعرف ذلك دون تحقيق ولا تحقيقه دون الإتيان به ولا المجئ به دون ان يساوى ذلك الأصل الذى فى أنفسهم ولا هذه المساواة دون ان تذهب السورة التى يجيئون بها بكل ما وقر فى انفس العرب الفصحاء واستولى على إحساسهم من بلاغة القرآن وفصاحة نظمه ذلك أمر بعضه أشد من بعض وابلغ فى الاستحالة .

فإن وجد منه سفيه كمسيلمه يحمله جنون العظمة وحب الغلبة والتحمد فى الناس ثم كدر الفطرة وغلظ الإحساس فى نفوس اتباعه على أن يتعقب السورة أو بعض السور ، بالمعارضة لا يبالى موقع كلامه وعلى اى خيبه كان مصرعه فلن

(١) يلتفون يمينا وشمالا . واللدد : صفحة العنق وجانبه .

يكون له مذهب إلا مقابلة الكلمة بالكلمة والوزن بالوزن كما قال ، فى معارضته ، "إنا اعطيناك الكوثر فصل لربك وانحر إن شانئك هو الأبتر" (١) .

فقد قال ، إنا اعطيناك الجماهر ، فصل لربك وجاهر ... إلى آخر ما حكوا من سخافاته وحماقاته التى التمس منها الحجة له فكانت فيها الحجة عليه واراد ان يستطيل بها فتركته مثلا فى الحماقة والسخرية .

مما سبق ندرك ان من مظاهر عجز العرب عن معارضة القرآن انه يضيق بهم الأمر عندما يذهبون إلى معارضة السورة القصيرة على قلة كلماتها فإن ذلك الإحساس بالضيق يلازمهم ولا يفارقهم يريد عليهم محاسن اسلوب القرآن ويثمرهم بها من هنا وهناك فلا يكون إلا ان يقفوا حيارى لا يدرون إلى اى جانب يتوجهون فلو حاول سفيه من سفهائهم أن يعارض سورة قصيره مثل سورة الكوثر كمسيلمة فلن يكون لهم مذهب إلا بمقابلة الكلمة والوزن بالوزن مما يكون دليلا عليه وليس دليلا له كما يدل على حماقته ويعرضه للسخرية . على ان كلامنا آنفا فى عجز العرب عن معارضة السورة القصيرة من القرآن وعدم تأتيهم لذلك بالسبب الذى بيناه لا يؤخذ من أن غير العرب المحدثين والمولدين وسائرين يكونون عربا فى اللسان دون الفطرة يستطيعون ما لم يأت لأولئك إذ كانوا دينهم ليس لهم إحساس لنوى تستبديه روعة الكلام وتصرفه بالكثير عن القليل لتمثل الأصل اللغوى الذى ينبغى أن يكون عليه الوضع البناء والذى هو فى نفس حقيقة الإعجاز لأنه سر التركيب والنظم .

فيقال من ذلك إن المولدين ومن فى حكمهم تتهيأ لهم معارضة السور القصار والآيات القليلة ويتأتون إلى ذلك بالصنعة وما ألقوه من إحكام الوصف وإدماج الكلام والتغلغل فى

---

(١) الكوثر .

طرائق الانشاء والتوفر على تحسين بهجته وتزين ديباجته فإنهم مع هذه الوسائل كلها ابعد من العرب فى أسباب العجز وأدنى إلى التقصير وأقرب إلى الهجنه إذا هم تعاطوه لأن أحدهم إذا قابله كلمات الاية أو السورة او معانيها فإنه لا يعد وحالة من حالتين :

* إما أن يتعلق على الألفاظ وأوزان الكلام فى اللسان ويمضى فى مثل نظم القرآن فينظر فى الحرف بين الحرفين ملاءمة واحتياكا ، وفى الكلمة بين الكلمتين تناسبا واطرارا وفى الجملة إزاء الجملة وضعا وتعليقا ويمر ذلك حتى يخرج من السورة وهذا سوأ الحالين اثرا عليه واشدها ازراء به وابلغها فضيحة له لأنها تنادى على كلامه بالنمة وتدل فى مقاطعة على مواضع الكلام والفتور وترميه فى نظامه إلى ثمرات الطبع إذ يعمل على الشبوة ويأخذ بالمحاكاة دون أن يذهب فى البين على سجيته ويمضى فى أسلوبه الذى يتعلق بمزاجه واحواله النفسية وهذا مع ضيق الكلمات القليلة ان تسع شيئا من المحسنات أو تستوفى وبها من وجوهها ومع أن المقابلة بين الأصل والمعارضة ستؤدى إلى البحث فى سر النظم وطريقة التاليف من الجملة إلى الكلمة إلى الحرف وهو مذهب استبد به نظم القرآن حتى كأنه استوفى من اللغة كل ما يمكن أن يتهيأ منه فأما ألفاظه بأعيانها وأجراس حروفها إذا أريد مثل نظمه وأما الخروج بالكلام إلى نظم أخرى فى طريقة غير طريقته وذلك من أعجب ما فيه حتى ما يقضى منه البليغ عجبا ومهما أراغ (1) الانسان وجه التخلص إلى معارضته بمثل نظمه فانه يرى نفسه بازاء ألفاظه من أين دار وكيف انقلب ولا ينصرف هذه الالفاظ منه إلا أن يزيغ طريقة أخرى من الكلام فتتلقاه اللغة بألفاظها وتراكيبها من كل جهه حتى يسعها وتسعه .

---

(1) أراغ : أراد وطلب على وجه المكر .

* والأقرب ـ الحالة الأخرى ـ أن يكون من يريد المعارضة السورة الصغيرة قد ذهب مذهبا لا يتقيد فيه بنظم القرآن ولا بأسلوبه وإنما همه في المعارضة أن يجود ويبين اللفظ ويحرك قسطه من الصناعة وأن يتولى الكلام بالروية والنظر حتى يخرج مشرق الوجه مصقول العارض دقيق الصنعة بالغ التركيب .

وهذه الحالة تنتهي إلى عكسها لأن ذلك لا يتأتى من أساليب البلغاء في الألفاظ الموجزه والعبارة القصيرة إلا أن تكون مثلا مضروبا أو حكمه مرسلة أو نحو ذلك مما يقصر بطبيعته في الدلالة وتستوفي القصة أو اطالته المقرونه به شرح معناه ويكون هو روح هذا المعنى فإنه ما بين حكمة أو مثل أو ما يجرى مجراهما إلا وانت واجد لكل من ذلك قصه فيها أو حالة قيل عليها ثم لا يقع من نفسك موقعا يهز ويعجب حتى تكون القصة أو الحالة او ما تفهمه منهما قد سبقته إلى نفسك أو صارت معه إلى ذلك الموضع منها فإن انت وقفت على حكمة لا تعرف وجهها أو سمعت مثلا لم يقع إليك مساقه أو لا تكون معه قرينه تفسره فقلما ترى من أحدهما إلا كلاما مقتضبا أو عبارة مبهمة تخرج مخرج اللغز والمعاياة واحتياج على كل حال إلى رؤية فتنزل منه منزلة ذلك الشرح الذى يعطيه مساق القصة او صفة الحالة وانظر اين هذا من اغراض السور والآيات الكريمة ؟ (١) .

فانت ترى أن معارضة السور القصار اشد على المولدين ومن في حكمهم إرادة الطوال بالمعارضة ، وان ارادوا مثل النظم أو لم يريدوه على أن المعارضة لا تكون شيئا ما لم تكن تمثل النظم والأسلوب وهو ما لم يتحقق ولن يتحقق على الاطلاق .

---

(١) إعجاز القرآن للرافعي ص ١٩٨ .

وهذه الطوال فكل آية منها في الاستحالة على المعارضة تقوم بما في السور القصار كلها لتحقيق وجه النظم وأسرار التراكيب واستقامته ذلك وتراد فهما بما هو مقطعه للاصل ومن تعلق الآية بما قبلها وتسببها لما بعدها وظهورها في جملة النسق فأين يجول الرأس في هذا كله ومن أين يستطرد ؟ (١) .

مما سبق ندرك أنه قد يرد اعتراض يقول :
إن المولدين ومن في حكمهم تتهيأ لهم معارضة السور القصار والآيات القليلة مما يتيسر لهم من قدرات على التحسين وتزيين الأسلوب « الديباجة » .

ويرد الرافعي على هذا الاعتراض فيقول ، إنه لا يعدو حالة من حالتين :

* أما أن يتمسك بتقليد الألفاظ وأوزان الكلام في اللسان وبمعنى في مثل نظم القرآن فيكون بذلك قد لجأ إلى أسوأ الحالتين أثرا عليه وأشدها احتقارا به لأنها تحكم على كلامه بالصنعه وعدم الفكرة .

* وأما أن يكون من يريد معارضته السورة القصيرة قد سلك مسلكا آخر لا يلتزم فيه بأسلوب القرآن الكريم وإنما كل همه أثناء المعارضة أن يجود ويحسن اللفظ ويحكم الصنعة ويتأنى في كلامه ويعمل النظر حتى يخرج بأسلوب جميل بليغ التركيب وهذه الحالة تؤدى إلى عكسها .

وإذا كان هذا العجز في السور القصار فمن باب أولى أن يكون في السور الطوال .

---

(١) إعجاز القرآن للرافعي ص ١٩٨ - ١٩٩ .

٦ - الصوت المطرب البالغ في التطريب :

فى القرآن مظهر غريب لإعجازه المستمر الا يحتاج فى تعرفه إلى روية ولا إعنات وما هو إلا أن يراه من اعترض شيئا من أساليب الناس حتي يقع فى نفسه معنى إعجازه لأنه امر يطلب على الطبع وينفرد به فيبين عن نفسه بنفسه كالصوت المطرب البالغ فى التطريب لا يحتاج امرؤ فى معرفته وتمييزه إلى أكثر من ساعة .

ذلك هو وجه تركيبه أو هو اسلوبه فانه مباين بنفسه لكل ما عرف من أساليب البلغاء فى تركيب خطابهم وتنزيل كلامهم وعلى انه يؤاتى بعضه بعضا وتناسب كل آية أخرى فى النظم والطريقة على اختلاف المعانى وتباين الاغراض سواء فى ذلك ما كان مبتدأ به من معانيه واخباره وما كان متكررا فيه فانه قطعة واحدة على خلاف ما اتت واحده فى كل كلام بليغ من التفاوت باختلاف الوجوه التى يعرفه إليها والعلو فى موضع والنزول فى موضع ثم ما يكون من فترة الطبع وسمة النفس فى جهة بعث عليها الملل او جهة استؤنف لها النشاط .

وليس من شيء فى اسلوب القرآن يغض من موضعه او يذهب بطريقته او يدخله فى شبه من كلام الناس او يرده إلى طبع مروض من طباع البلغاء وما من عالم او بليغ إلا وهو يعرف ذلك ويبقى خروج القرآن من أساليب الناس كافة دليلا على إعجازه وعلى انه ليس من كلام إنسان (١) .

وعلى هذا فإن القرآن الكريم ينفرد باسلوبه لأنه ليس وضعا إنسانيا البته ولو كان من وضع إنسان لجا على طريقة تشبه اسلوبا من اساليب العرب أومن جاء بعدهم إلى هذا العهد ولا من الاختلاف فيه عندذلك بد فى طريقته ودقة معانيه قال الله تعالى "ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه

---

(١) إعجاز القرآن للرافعي ص ٢٠١ .

اختلافا كثيرا" (١) ولقد احس البلغاء بهذا المعنى واستيقنه بلغاؤهم ولولاه ما انحموا ولا انقطعوا من دونه لأنهم راوا جنسا من الكلام غير ما تؤديه طباعهم وكيف لهم فى معارضته بطبيعة غير مخلوقة ؟ .

وما دامت قوة الخلق ليست فى قدرة المخلوق فليس فى قدرة بشر معارضة هذا الأسلوب وهذا هو الصريح من قوله تعالي "قل لئن اجتمعت الانس والجن علي ان ياتوا بمثل هذا القرآن لا ياتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا" (٢) .

٧ - أسلوب القرآن يمتاز أيضا بعدة صفات : السهولة والرهبة واللين والمطاوعه :

يقول الرافعى "هل ترى فيه من الغرابه التى يكسوها البلغاء كلامهم فى تجويد وسبكه وحبكه إلا أن غرابته فى كونه منسجما لا غرابة فيه ؟

وهل عندك اغرب من السهوله التى يسيل بها القرآن وهى فى كثير من الكلام واغراضه لا تقتضى إلا الإعجاز ؟ .

ثم يقول الرافعى : انظر هل ترى هذه السهوله الغريبه فى نفسها مما يمكن أن يحس فيها روح إنسانى كسائر الأساليب ام هى سهولة الأوضاع الإلهيه التى يعرفها كل الناس ويعجز عنها الناس كلهم ثم يعرفه العلماء منها غير ما يعرفه الجهال ثم يمتاز بعض العلماء فى المعرفه بها على بعض ثم يبقى سر الخلق مع كل ذلك مكتوما لا يعرف وما هو سر الإعجاز ؟ .

ثم يمضى الرافعى فى مسيرته قائلا "تامل هل ترى فى القرآن كله مما بين الدفتين إلا رهبه لا تمويه فى شىء منها

---

(١) النساء / ٨٢ .

(٢) الإسراء / ٨٨ .

ولا ادرى من التمكن يصف له منزلة المخلوق من امر الخالق والا روحا اكبر من ان يكون نفسا انسانه او اتزين آثار هذه النفس ثم هل تجد في أغراضه إلا ما كان في وضعه مادة لتلك الرهبة ولذلك الأثر وذلك الروح ؟ (١) .

مما سبق ندرك أن أسلوب القرآن اسلوب يخاطب الروح بمنطقها من الوان الكلام لا من حروفه وهو يتألف الناس بهذه الخصوصية حتى ينتهى بهم مما يفهمون إلى ما يجب ان يفهموا ، وحتى يقف بهم على نفي اليقين وتتطلع الحق وتراه من اجل ذلك يستجمع درجات الفهم كأن فيه غايه لكل عقل صحيح ولكنه في نفسه وأسرار تراكيبه آخر ما يسمو إليه فهم الطبيعة نفسها ، بحيث لو هو علا عن ذلك لخفى عن الناس ولو نزل عن ذلك لما ظهر في الناس لأن علوه يفوت درعهم ونزوله يوحد السبيل إلى معارضته ونقضه وكلا هذين يجعل أمره عليهم غمة فلا يتجهون إلى صواب وانما هو في نفسه وفى افهام الناس "الحق والميزان" وكل الناس يعملون لفهمه ويدابون عليه ولكل درجات مما عملوا .

وها قد مرت على اللغة العربية من عهد نزول القرآن إلى عصرنا هذا بل إلى ان يرث الله الأرض ومن عليها - ادوار مختلفه بين علو ونزول واتساع وانقباض حركة وجمود وحضارة وبداوة والقرآن في كل هذه الأدوار واقف في عليائه يطل على الجميع من سمائه وهو يشع نورا وهداية ويفيض عذوبة وجلاله ويسيل رقة وجزاله ويرف جدة وطلاوه ولا يزال كما كان غضا طريا يحمل راية الإعجاز ويتحدى امم العالم قائم في صراحة الحق وقوته وسلطان الإعجاز وصولته (٢) "قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا

---

(١) إعجاز القرآن للرافعي ص ٢٠٦ .

(٢) مناهل العرفان للزرقاني ج ٢ / ٢٢٩ .

يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا" (١) .

وهكذا فانه يمكن القول بأن أسلوب القرآن الكريم يغاير أسلوب البلغاء من جهة تركيبه وتناسب آياته في النظم على اختلاف المعاني سواء كان مبتدأ في معانية أو كان متكررا فيه وليس هناك شيء من أسلوب القرآن ما يدخل في شبه من كلام الناس فللقرآن أسلوبه المثمر لأنه ليس وضعا انسانيا البته ولو كان من وضع الإنسان لجاء على طريقه تشبه أسلوبا من أساليب العرب "ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا" (٢) .

ومن سمات القرآن أيضا :

السهولة الغريبة :
سهولة الأوضاع الإلهيه التي يعرفها كل الناس - العامة والخاصة ويعجز منها الناس كلهم ويعرف منها العلماء غير ما يعرفه الجهلاء .

الرهبة :
وتتمثل في الروح التي تسري في أساليب القرآن وهي أكبر من أن تكون نفسا إنسانية أو أثرا من هذه النفس .

معانيه الكثيرة : وأغراضه الوافره التي تخالف معلومات الناس

اللين والمطاوعه :
والمرونة في التفسير بحيث لا يصادم الآراء الكثيره المتقابله فهو يفسر في كل عصر ينقص من المبنى وزيادة فيه وقد فهمه عرب الجاهلية الذين لم يكن لهم إلا الفطره وفهمه

---

(١) الإسراء /٨٨ .
(٢) النساء/ ٨٢ .

كذلك الفلاسفة وأهل العلوم وفهمه زعماء الفرق المختلفه وأتيت العلوم الحديثه كثيرا من حقائقه التي كانت مغيبه وفي علم الله ما يكون من بعد وأن ما عهد الله كلام الناس لا يتحمل ذلك ولا بعضه .

إن أسلوب القرآن لا يخلق على كثرة الرد بل يبقى معناه متجددا على مـر العصور والأزمنه المختلفه وهذا بعض من أياسهم من المعارضة تيقنا أنه لا قبل لهم بها واستبصارا في حقيقة هذا الكلام وإنه لما لا يستشرى الطمع فيه وأنه وحي يوحى وهو في عينه أيضا ببعض ما أخذ بهم إليه وعطفهم عليه حتى كان بلغاؤهم يستمعونه وتصغى إليه أفئدتهم ثم يتلاومون على ذلك وذلك كما في خبر أبي جهل وصاحبيه وحتى قالوا كما حكى الله عنهم وسجله في كتابه ليكون شيئا تاريخيا للعقل الإنساني ولا يستمع لهذا القرآن ، والغوا فيه لعلكم تغلبون" (١) .

فجعلوا كل أمرهم وأمره في آذانهم كما ترى وما هي إلا سبيل الكلام إلى النفس وكأنهم أقروا بأنهم المغلبون ما سمعوه (٢) .

---

(١) فصلت / ٢٦

(٢) إعجاز القرآن للرافعي ص ٢٧٠ .

اولاً : الحروف واصواتها

وشمل ذلك :

ا - طريقة النظم التى اتسقت بها الفاظ القرآن .
ب - الفرق بين الحرف فى القرآن وفى كلام العرب .
ج - النظم الموسيقى فى حروف القرآن .
د - اساس الروعة والهيبة ، طرق الأداء الصحيحة .
هـ- الفواصل القرآنية .
و - القرآن صعب مستصعب على من كرهه .

٣ - نظم القرآن

لهذا النظم جهات ثلاث في الحروف والكلمات والجمل

نظم القرآن

سبق أن أومأنا إلى الخصائص التى امتاز بها أسلوب القرآن والتى كانت سببا لانقطاع العرب دونه وانخذالهم ، وتلك الأسباب لا يمكن أن يكون شيء منها فى كلام بلغاء الناس من أهل اللغة ، لأنها خارجه عن قوى القبول وجماع الطبائع ولا أثرها يعد فى نفس كل بليغ يعرف ما هى البلاغة وكيف هى إلا استشعار العجز عنها والوقوف من دونها ، ولكنها صفات من نظم القرآن وطريقة تركيبه ، وإن لهذا النظم جهات ثلاث فى الحروف والكلمات والجمل (1) . وفيما يلى بيان تلك الجهات :

أولا : الحروف وأصواتها : وشمل ذلك :

أ - طريقة النظم التى اتسقت بها ألفاظ القرآن .
ب - الفرق بين الحرف فى القرآن وفى كلام العرب .
ج - النظم الموسيقى فى حروف القرآن .
د - الروعه والهيبه : طرق الأداء الصحيحه .
هـ - أساس الفواصل القرآنية .
و - القرآن صعب على من كرهه .

وفيما يلى بيان كل عنصر من هذه العناصر :

أ - طريقة نظم الصوت التي اتسقت بها ألفاظ القرآن :

يرى الرافعى أن رد طريقة النظم التى اتسقت بها ألفاظ القرآن وتألفت لها حروف هذه الألفاظ ، وإنما هى طريقة تؤدى بها إلى أنواع من المنطق وصفات من اللهجه لم تكن على هذا الوجه من كلام العرب ولكنها ظهرت فيه أول شيء على لسان النبى صلى الله عليه وسلم فجعلت المسامع لا تنبو

---

(1) إعجاز القرآن للرافعى ص ٢٠٩ - ٢١١ بتصرف .

عن شيء من القرآن ولا تلوى من دونه حجاب القلب حتى لم يكن لمن يسمعه بد من الاسترسال إليه والتوفر على الاصغاء لا يستمهله أمر من دونه وإن كان أمر العاده ولا يستثنه الشيطان وإن كانت طاعته عندهم عباده ، فإنه إنما يسمع ضربا خالصا من الموسيقى اللغوية فى انسجامه واطراد نسقه ، واتزانه على أجزاء النفس مقطعا ونبره كأنها توقعه توقيعا ولا تتلوه تلاوة (١) .

وهذا النوع من التاليف لم يكن منه فى منطق ابلغ البلغاء وافصح الفصحاء إلا الجمل القليلة التى ايما تكون روعتها وصيغتها واوزان توقيعها من اضطراب النفس فيها إذ تضطرب

---

(١) الروايات التى تثبت هذا المعنى كثيره : وما أسلم عمر بن الخطاب على شدته وعنفه إلا حين رق للقرآن وما عبد الله إلا منذ اسلم عمر رضى الله عنه ولكن أبلغ ما يثبت هذا المعنى ما رووه من أن ثلاثة من بلغاء قريش الذين لا يعدل بهم فى البلاغة احد ، وهم الوليد بن المغيرة والأخنس بن قيس وأبو جهل بن هشام ، اجتمعوا ليلة يسمعون القرآن من النبى صلى الله عليه وسلم وهو يصلى فى بيته إلى أن أصبحوا فلما انصرفوا جمعتهم الطريق فتلاوموا على ذلك وقالوا : إنه إذا أراكم سفهاؤكم تفعلون ذلك فعلوه واستمعوا إلى ما يقوله واستمالهم وآمنوا به فلما كان فى الليلة الثانية عادوا واتخذ كل منهم موضعه فلما أصبحوا جمعتهم الطريق فاشتد نكرهم وتعاهدوا وتحالفوا أن لا يعودوا فلما تمالى إليها .وجاء الوليد إلى الاخنس بن قيس فقال : ما تقول فيما سمعت من محمد ؟ فقال الأخنس : ماذا أقول ؟ قال أبو عبد المطلب فينا الحجابة فقلنا نعم قالوا فينا السوانة قلنا : نعم ، قالوا فينا السقاية . قلنا نعم ، يقولون فينا نبى ينزل عليه الوحى ، والله لا آمنت به أبدا ، فما صدهم إلا العصبية فهم إذا لم يسمعوه كما ترى (وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه

فـي بعض مقـامات الحماسة او الفـخر أو الغزل او نـحـوها فتنتزى بكلام المتكلم من أبعد موضع في قلبه حتى تنتهي به إلى الحلق ثم ترسله من هناك وكأن ألفاظه عواطف تتنفى .

ب - الفرق بين الحرف في القرآن وبينه في كلام العرب :

يوضح لنا الرافعي الفرق بين الحرف في القرآن الكريم وبينه في كلام العرب وان الحرف في القرآن معجزه ، حيث يقول : فلما قرئ عليهم القرآن ، رأوا حروفه في كلماته ، وكلماته في جمله ، ألحان لغوية رائعة كأنها لا تدل فيها وتناسبها قطعة واحدة قراءتها هي توقيعها فلم يفتهم هذا المعنى ، وإنه أمر لا قبل لهم به وكان ذلك ابين في عجزهم حتى أن من عارضه منهم كمسيلمة ، منح في خرافاته إلى ما حسبه نظما موسيقيا أو بابا منه وطوى عما وراء ذلك من التصرف فياللغة وأساليبها ومحاسنها ودقائق التركيب البياني كأنه فطن إلى أن الصدمة الأولى للنفس العربية إنما هي في أوزان الكلمات وأجراس الحروف دون ما عداها وليس يتفق ذلك في شيء من كلام العرب إلا أن يكون وزنا من الشعر او السجع .

وقد كان منطق القوم يجرى على أمل من تحقيق الحروف وتفخيمها ، ولكن أصوات الحرف إنما تنزل منزلة النبرات الموسيقية المرسلة في جملها كيف اتفقت فلابد لها مع ذلك من نوع في التركيب وجهة من التاليف حتى يمازج بعضها بعضا ويتالف منها شيء مع شيء ، فيتداخل خواصها وتجتمع صفاتها ويكون منه اللحن الموسيقي ولا يكون إلا من الترتيب الصوتي الذي يثير بعضه بعضا على نسب معلومة ترجع إلى درجـات الـصوت ومن أرجـه وأبعـاده فكان العرب يترسلون أو

لعلكم تغلبون) كان في ذلك رجاء أن يغلبوا ، فتأمل معنى (تغلبوا) .

يحزمون (١) فى منطقتهم كيفما اتفق لهم لا يراعون أكثر من تكييف الصوت إلى أن يتفق من هذه قطع فى كلامهم تجئ بطبيعة الغرض الذى تكون فيه ، أو بما تعمل لها المتكلم كلى تخط من النظم الموسيقى ان لم يكن فى الغاية ففيه ما عرف من هذه الغاية .

ج - النظم الموسيقى :

ثم يوضح الرافعى ان من أسرار إعجاز النظم الموسيقى فى القرآن "ترتيب حروفه اعتباراً من أصواتها ومخارجها ، ومناسبة بعض ذلك لبعضه مناسبة طبيعية فى الهمس والجهر والشدة والرخاوة والتفخيم والترفيق والتفشى والتكرير .

ولولا القرآن وهذا الأثر العجيب من نظمه لذهب العرب بكل فضيلة فى اللغة ولم يبق بعدهم للفصحاء إلا كما بقى من حق هؤلاء فى العامية بل لما بقيت اللغة نفسها (٢) .

د - الروعة والهيبة أساسها طرق الأداء الصحيحة :

وليس يخفى أن مادة الصوت هى مظهر الانفعال النفسى وأن هذا الانفعال بطبيعته إنما هو سبب فى تنويع الصوت بما يخرجه فيه مدا أو غنه أو لينا أو شدة وبما يهيئ له من الحركات المختلفه فى اضطرابه وتتابعه على مقادير تناسب ما فى النفس من أصولها ثم هو يجعل الصوت الايجاز والاجتماع والاطناب والبسط بمقدار ما يكسبه من الحدوه والارتفاع والاهتزاز وبعد المدى ونحوها مما هو بلاغة الصوت فى لغة الموسيقا (٣) .

---

(١) يقال حذم فى قراءته إذا أسرع .

(٢) إعجاز القرآن للرافعى ص ٢١٣ - ٢١٤ .

(٣) السابق / ٢١٥ .

هـ - الفواصل القرآنية : (١)

يرى الرافعي أن ائتلاف الحروف في القرآن وتناسبها كأنها قطعة واحدة له أعظم الأثر في توفير الجمال الموسيقى للفواصل في القرآن الكريم يقول : "وما هذه الفواصل التي تنتهي بها آيات القرآن إلا صور تامة للأبعاد التي تنتهي بها جمل الموسيقا وهي متفقة مع آياتها في قرار الصوت اتفاقا عجيبا يلائم نوع الصوت والوجه الذي يساق عليه بما ليس وراءه في العجب مذهب وتراها أكثر ما انتهى بالنون والميم وهما الحرفان ، الطبيعيان في الموسيقا نفسها أو بالمد وهو كذلك طبيعي في القرآن فإن لم تنتهي بواحدة من هذه كان انتهت بسكون حرف من الحروف الأخرى كان ذلك متابعه بصوت الجملة وتقطيع كلماتها ومناسبة تكون المنطق بما أشبه واليق بوضعه وعلى أن ذلك لا يكون أكثر ما أتت واحدة إلا في الجمل القصار ولا يكون إلا بحرف قوي يشبع القلقلة والصفير أو نحوهما وأم هو ضروب أخرى من النظم الموسيقى .

وهذه هي طريقة الاستهواء الصوتي في اللغة وأثرها طبيعي في كل نفس ، فهي تشبه في القرآن أن تكون صوت إعجازه الذي يخاطب به كل نفس تفهمه وكل نفس لا تفهمه ثم لا يجد من النفوس على أي حال الإقرار والاستجابه .

ولو نزل القرآن بغيرها لكان ضربا من الكلام البليغ الذي يطمع فيه أو في أكثره ولما وجد فيه يتعدى أهل هذه اللغة العربية إلى اللغات الأخرى ولكنه انفرد بهذا الوجه ، للمعجز

(١) الفواصل القرآنية متشاكلة في المقاطع توجب حسن الافهام ، وفواصل القرآن كلها بلاغة وحكمة ، لأنها طريق إلى إفهام المعاني التي تحتاج إليها في أحسن صورة يدل بها عليها.

فتألفت كلماته من حروف لو سقط واحد منها أو ابدل بغيره أو اقحم معه حرف آخر لكان ذلك خللا بينا أو ضعف ظاهر في نسق الوزن وجرس النظمه وفى حس السمع وذوق اللسان وفى انسجام العبارة وبراعة المخرج وتساعد الحروف وإفضاء بعضها إلى بعض ولرأيت لذلك هجنه في السمع كالذى تنكره من كل مرئى لم تقع أجزاؤه على ترتيبها ولم تتفق على طبقاتها وخرج بعضها طولا وبعضها عرضا وذهب ما بقى منها إلى جهات متناكره (١) .

و - القرآن صعب مستصعب على من كرهه :

ويرى الرافعى انه مما انفرد به القرآن وباين سائر الكلام انه لا يخلق على كثرة الرد وطول التكرار ولا تمل منه إلا عادة وانك "كلما أخذت فيه على وجهه الصحيح فلم تخل بادائه ، رأيته غضا طريا ، وجديدا مونقا وصادفت من نفسك له نشاطا مستأنفا وحسا موفورا وهذا أمر يستوى في أصله العالم الذى يتذوق الحروف ويستمر تركيبها ويمن في لذة نفسه من ذلك والجاهل الذى يقرأ ولا يثبت معه من الكلام إلا أصوات الحروف وإلا ما ميزه من اجراسها على مقدار ما يكون من صفاء حسه ورقة نفسه وهو لعمر الله أمر يوسع فكر العاقل ويملأ صدر المفكر ولا ترى جهة تعليله ولا نصحح منه تفسيرا إلا ما قدمنا من إعجاز النظم بخصائصه الموسيقية وتساوق هذه الحروف على أصول منضبطه من بلاغة النغم بالهمس والجهر والقلقه والصفير والمد والغنه ونحوها ثم اختلاف ذلك في الآيات بسطا وإيجازا وامتداد وردا وافرادا وتكريرا .

هذا على انه سيل واتساق وتطويل ولا يضبط بحركات وسكنات كأوزان السفر لتجعل له بطبيعتها منه بين النظم

---

(١) إعجاز القرآن للرافعى ص ٢١٦ - ٢١٧ .

الموسيقى ولا يخرج على مقاطع الكلمات التي يجرى فيها الألحان وضروب النغم مما يسهل تأليفه ويكون أمره إلى الصوت وطريقة تصريفه وتوقيفه ، لا إلى أصوات الحروف ودرجة تأليفها وتتابعها ليحسن مع أهل الصناعة وإن كانت حروفه غثة التركيب سمجة المخارج وكانت خافية كزة حتى إذا صار إلى من لا يحسن ان يوقع عليه الصوت ويطرد له اللحن من غير حذاق المغنيه خرج أبره كلام وارزله وأسمجه ما تعرف من الكلام والفتور والتهالك فى أكثر ما تعرف منه .

وبهذا الذى قدمناه يفسر قوله صلى الله عليه وسلم : "القرآن صعب مستصعب على من كرهه" لأن كرهه لا يكون إلا زعما وتكلفا من اللسان فانما امرؤ سمعه او فهمه أحبه وسوغه من شعوره ونفسه فمن أين تدخل الكراهة على النفس ولاسبيل إليها فى الكلام إلى السمع والفؤاد" (١) .

إن الرافعى يوضح لنا بعض مميزات الأسلوب القرآنى الذى خالف به سائر الأساليب وامتاز به عنها على النحو الآتى :

* أنه يتجدد دائما مع كثرة ترداده وتكراره .

* لا تمل منه النفس مع كثرة الاعادة وكلما قرأته وجدت فيه جديداً ووجدت فى نفسك نشاطا يستوى فى ذلك العالم الضليع الملم باللغة وحروفها وأصواتها ، والجاهل الذى لم ينل من البلاغة قدرها .

* على ان موسيقاه لا تضبط بحركات وسكنات كأوزان الشعر بل إنها ترسيل واتساق وهذا يفسر قول الرسول صلى الله عليه وسلم "القرآن صعب مستصعب على من كرهه" لأن كرهه لا يكون إلا زعما تكلفا ، إلا ان أى إنسان سمعه وفهمه أحبه وسوغه من شعوره ونفسه .

ثانيا : الكلمات وحروفها

يرى الرافعى أن الكلمة فى الحقيقة الوضعية إنما هى :

صوت النفس الذى يعتبر أول الأصوات الثلاثة التى لابد منها فى تركيب النسق البليغ .... أما الأصوات الثلاثة التى أومأنا إليها فهى :

- صوت النفس « الصوت الموسيقى »
- صوت العقل « الصوت المعنوى » الذى يكون من لطائف التركيب .
- صوت الحس « لا يكون إلا من دقة التصوير المعنوى » « الإبداع فى تلوين الخطاب » .

وفيما يلى بيان تلك الأصوات بعونه سبحانه وتعالى ...

ثانيا : الكلمات وحروفها

يرى الرافعى ان الكلمة فى الحقيقة الوضعية إنما هى صوت النفس ، لأنها تلبس قطعه من المعنى فتختص به على وجه المناسبه قد لحظته النفس فيها من اصل الوضع . [1]

وصوت النفس اول الأصوات الثلاثة التى لابد منها فى تركيب النسق البليغ حتى يستجمع الكلام بها اسباب الاتصال بين الألفاظ ومعانيها ، وبين هذه المعانى وصورها النفسية . اما الأصوات الثلاثة التى أومانا إليها منها :

١) صوت النفس : وهى الصوت الموسيقى الذى يكون من تاليف النغم بالحروف ومخارجها وحركاتها ، ومواقع ذلك من تركيب الكلام ونظمه على طريقة متساوقة ، بحيث تكون الكلمة كانها خطوة للمعنى فى سبيله إلى النفس ، إن وقف عندها هذا المعنى قطع به .

٢) صوت العقل : وهو الصوت المعنوى الذى يكون من لطائف التركيب فى جملة الكلام، ومن الوجوه البيانية التى يدار بها المعنى ، لا يخطئ طريق المعنى من اى الجهات انتحى إليها .

٣) صوت الحس : وهو ابلغهن شانا ، لا يكون إلا من دقة التصور المعنوى والإبداع فى تكوين الخطاب ، ومجاذبة النفس مرة وموادعتها مره واستيلاده على مخصها بما يورد عليها من وجوه البيان ، أو يسوق إليها من طرائف المعانى ... وعلى مقدار ما يكون فى البليغ من هذا الصوت يكون فيه روح البلاغة ... ولو تاملت هذا المعنى ، لرايته روح الإعجاز فى القرآن الكريم ، بحيث لو خلا منه لأشبه أن يكون إعجازه صناعيا عند العرب - إن بقى معجزا - ولو هم فقدوا هذا المعنى من اكثره أو من اقله ، لقد كانوا وجدوا مذهبا فيه من

القول ذلك لأن صوت النفس طبيعى فى تركيب لغتهم ، وإن كان فيها إلى التفاوت كمالا ونقصا ، وصوت الفكر لا يعجزهم أن يستبينوا فى كثير من كلام بلغائهم ، أما صوت الحس فقد خلت لغتهم من مديحه وانفرد القرآن وقد كانوا يجدونه فى أنفسهم منذ افتنوا فى اللغة وأساليبها ولكنهم لا يجدون البيان به فى ألسنتهم ، لأنه من الكمال اللغوى الذى تعاطوه ولم يعطوه وإنما كانوا يبتغون الحيلة إليه بألوان من العادات وضرب من التعبير النفسى ، وإذا هى اتصلت بالحس البيانى الذى ميزتهم به الفطرة فى شيهت أن تكون استواء حسيا ، وبهذا خلص إليهم كلام شعرائهم وخطبائهم ، وبلغ من أنفسهم ومازجها ، وكانوا منها فى محل وموقع ، على أننا نقرأ اليوم أكثر ولا نجده بتلك المنزلة .

وإنما مثل ذلك كمن يفتن بالجمال ، فهو إذا رأى الوجه الجميل كانت نظرته إليه كلاما نفسيا .

لو جهد البلغاء جهدهم على أن يحكوه بالعبارة كما هو فى نفسه لأعيتهم وسائل البلاغة أن يمهدوا لهذه الحالة النفسية ، ولجاءوا من كلامهم بالحس المغمور الذى لا يعدم بعض النقص والاضطراب مما حسبوه قد تكامل واستقر [1] وأعجب شىء فى أمر هذا الحس الذى يتمثل فى كلمات القرآن أنه لا يسرف على النفس ولا يستفرغ مجهودها ، بل هو مقتصد فى كل أنواع التأثير عليها فلا تضيق به ولا تنفر منه ولا يتخونها الملال ، ولا تزال تبتغى أكثر من حاجتها فى التروح والإصغاء إليه والتصرف معه والانقياد له ، وهو يسوغها من لذتها ويرفه عليها بأساليبه وطرقه فى النظم والبيان .

ولما كان الأصل فى نظم القرآن أن تعتبر الحروف بأصواتها وحركاتها ومواقعها من الدلالة المعنوية ، استحال أن

---

(1) إعجاز القرآن للرافعى ص ٢٢١ - ٢٢٢ بتصرف .

يقع في تركيبه ما يسوغ الحكم في كلمة زائدة أو حرف مضطرب ، أو ما يجرى مجرى الحشو والاعتراض او مايقال فيه انه تفوت واستراحه (١) بل نزلت كلماته منازلها على ما استقرت عليه طبيعة البلاغة وهو سر من اعجازه قد أحس به العرب ، ولو انهم وجدوا سبيلا إلى نقض كلمة من القرآن لأزالوها واثبتوا فيه هذا الخطأ ، او ما يشبه الخطأ في مذهبهم ، إذ كان من المشهور عنهم مثل هذا الصنيع في انتقادهم وتصفحهم بعضهم على بعض في التحدى والمناقضة (٢) .

وعلى ضوء ما سبق ندرك ان الرافعي قد وضع لنا الأصوات التي لابد منها في تركيب النسق البليغ ، صوت النفس والعقل والحس ، وعلى مقدار اجتماع هذه الأصوات يكون الكلام بليغا فيه من روح البلاغة فإن خرج مما وقفنا عنده للطباع النفسية فلم يكن في بعض الكلام مقدارا معينا تحسه في جهه وتفقده في جهه أخرى .

ولقد راى الرافعي ايضا ان القرآن الكريم كلماته منسجمة نتيجة الترابط بين الكلمات والمعاني بطريقة متساوقة ، بحيث تكون الكلمة كانها خطوة للمعنى في سبيله إلى النفس ، وهذا ما اطلق عليه "صوت النفس" .

هذا إلى ان الكلمات في القرآن قد جاءت على قدر المعاني ، إلى جانب الإبداع في تلوين الخطاب ، ومجاذبته النفس مره وموادعتها اخرى ، وهذا ما اطلق عليه "صوت الحس" او "الاقتصار في التاثير على الحس النفسي" ورأى الرافعي انه من المستحيل ان يقع في التركيب القرآني كلمات

---

(١) اى استخفافه بمن ضعف واستراحه من كلال في فكان الكاتب أو المتكلم يخفوث به .

(٢) إعجاز القرآن للرافعي ص ٢٢٥ .

زائدة أو حرف مضطرب أو ما يجرى مجرى الحشو والاعتراض .

ويرى الرمانى أن من وجوه إعجاز القرآن الكريم التلاءم ، حيث يقول "التلاءم نقيض التنافر والتلاءم تعديل الحروف فى التأليف ، والتأليف على ثلاثة أوجه : متنافر ، ومتلائم فى الطبقة الوسطى ، ومتلائم فى الطبقة العليا .

والمتلائم فى الطبقة العليا القرآن كله ، وذلك بين لمن تأمله ، والفرق بينه وبين غيره من الكلام فى تلاؤم الحروف على نحو الفرق بين المتنافر والمتلائم فى الطبقة الوسطى . وبعض الناس أشد إحساسا بذلك وفطنة له من بعض كما أن بعضهم أشد إحساسا بتمييز الموزون فى الشعر من المكسور ، واختلاف الناس فى ذلك من جهة الطباع كاختلافهم فى الصور والأخلاق .

والسبب فى التلاؤم تعديل الحروف فى التأليف ، فكلما كان أعدل كان أشد تلاؤما . وأما التنافر فالسبب فيه البعد الشديد أوالقرب الشديد وذلك أنه إذا بعد البعد الشديد كان بمنزلة الطفر ، وإذا قرب القرب الشديد كان بمنزلة مشى المقيد ، لأنه بمنزلة رفع اللسان ، ورده إلى مكانه ، وكلاهما صعب على اللسان ، والسهولة فى ذلك فى الاعتدال ، ولذلك وقع فى الكلام الإدغام والإبدال .

والفائدة فى التلاؤم حسن الكلام فى السمع ، وسهولة فى اللفظ ، وتقبل المعنى له فى النفس لما يرد عليها من حسن الصورة وطريق الدلالة ، ومثل ذلك مثل قراءة الكتاب فى أحسن ما يكون من الخط والحرف ، وقراءته فى أقبح ما يكون من الحرف والخط ، فذلك متفاوت فى الصورة وإيه كانت المعانى واحدة ومخارج الحروف مختلفة ، فمنها ماهو من أقصى الحلق ، ومنها ما هو من أدنى الفم ومنها ما هو فى

الوسائط بين ذلك .

والتلاؤم فى التعديل من غير بعد شديد أو قرب شديد ، وذلك يظهر بسهولته على اللسان ، وحسنه فى الأسماع وتقبله فى الطباع ، فإذا انضاف إلى ذلك حسن البيان فى صحة البرهان فى اعلى الطبقات ظهر الإعجاز للجيد الطباع البعيد بجوامر الكلام ، كما تظهر له اعلى طبقات الشعر من أدناها إذا تفاوت ما بينهما . وقد عم التحدى به للجميع لرفع الإشكال ، وجاء على جهة الإخبار فإنه لا تقع المعارضة لأجل الإعجاز .

وقد قامت الحجة على العربى والعجمى بعجز الجميع عن المعارضة إذ بذلك تبين المعجزة (١) .

---

(١) النكت فى إعجاز القرآن للرمانى ص ٨٨ - ٨٩ .

ثالثا : ألفاظ القرآن الكريم بطريقة استعمالها وتركيبها فوق اللغة

لقد صارت ألفاظ القرآن بطريقة استعمالها ووجه تركيبها كأنها فوق اللغة ويرجع ذلك إلى عدة أمور منها :

أ) ائتلاف اللفظة القرآنية مع أصوات الحروف .
ب) الألفاظ الطوال في القرآن خرجت مخرجا سويا ، فكانت أحسن الألفاظ حلاوة .
ج) الألفاظ المنفردة والمجموعة .
د) موسيقا الألفاظ القرآنية .
ه) الألفاظ الغريبة .
و) الكلمات التي يظن أنها زائدة .
ز) الألفاظ المعربة .
ح) الوجوه والنظائر والافراد .
ط) الأسماء الجامدة .
ي) حظر الترجمة الحرفية للقرآن .

ثالثا : الفاظ القرآن الكريم بطريقة استعمالها وتركيبها فوق اللغة :

ولقد صارت الفاظ القرآن بطريقة استعمالها ووجه تركيبها كانها فوق اللغة فإن احداً من البلغاء لا تمتنع عليه ، فصح هذه العربية للتى ارادها ، وهى بعد فى الدواوين والكتب ولكن لا تتع له مثل الفاظ القرآن فى كلامه ، وإن اتفقت له نفس الالفاظ بحروفها ومعانيها لأنها فى القرآن نظير فى تركيب ممتنع فترف به ، ولهذا ترتفع إلى انواع اسمى من الدلالة اللغوية او البيانية التى هى طبيعية فيها ، فتخرج من لغة الاستعمال إلى لغة الفهم ، وتكون بتركيبها المعجز طبقة عقلية فى اللغة ومن ثم تتنزل الأفكار منزلة الوهم الطبيعى الذى يؤثر بالصفة ما يؤثر بالشئ الموصوف بل بما وفى وزاد ، كما ترى فيمن يهتز للشعر ويطرب له ويملكه رق أعصابه النفسية فإنه يبصر الشاعر الفحل الذى أعجب به فيتوهم فى رأسه المعنى الكريم والخيال البارع الذى هو ضرب من الوحى ، وكانما تتخيل من الرأس صومعة الهية تهبط عليها ملائكة الحكمة والبيان ، وإنه ليتوهم ذلك فيهتز له هزة عصبية واضحة تعرفها فى انتشائه والتماع عينه واستطارة الحاظه ، وما تنطق به معارف وجهه وإن ذلك ليأخذ منه ما تأخذ القصيدة البارعة والكلمة النادرة وإنه على ذلك فى نفسه لشديد ، فهذا ما سميناه باب الترحم الطبيعى ، وهو بمنزلة من الحقائق النفسية (١) والسبب فى ذلك يرجع إلى عدة أمور هى :

١) ائتلاف اللفظة القرآنية مع أصوات الحروف :

لو تدبرت الفاظ القرآن فى نظمها ، لرأيت حركاتها الصرفية واللغوية تجرى فى الوضع والتركيب مجرى الحروف

---

(١) إعجاز القرآن للرافعى ص ٢٢٦ .

انفسها فيما هى له من أمر الفصاحة فيهئ بعضها لبعض وساير بعضها بعضا ، ولن تجدها إلا مؤتلفة مع أصوات الحروف مساوقة لها فى النظم الموسيقى حتى ان الحركة ربما كانت ثقيلة فى نفسها لسبب من أسباب الثقل أيها كان فلا تعذب ولا تستاغ ، وربما كانت أوكس النصيبين فى حظ الكلام من الحرف والحركة فإذا هى استعملت فى القرآن رأيت لها شأنا عجيبا ، ورأيت أصوات الأحرف والحركات التى قبلها قد مهدت لها طريقا فى اللسان واكتنفها بضروب من النغم الموسيقى حتى إذا خرجت فيه كانت اعذب شىء وأرقه وجاءت متمكنة فى موضعها ، وكانت لهذا الموضع أولى الحركات بالخفة والروعة (١) ومن ذلك :
لفظة "النذر" جمع نذير ، فإن الضمة ثقيلة فيها لتواليها على النون والذال معا ، فضلا عن حساة هذا الحرف ونبوه فى اللسان وخاصة إذا جاء فاصلة للكلام فكل ذلك مما يكشف عنه ويفصح عن موضع الثقل فيه ، ولكنه جاء فى القرآن على العكس وانتفى من طبيعة فى قوله تعالى : "ولقد أنذرهم بطشتنا فتماروا بالنذر" (٢) .

تأمل هذا الترتيب وانعم ، ثم انعم على تأمله ، وتذوق مواقع الحروف وآخر حركاتها فى حسن السمع وتأمل مواضع القلقلة فى دال "لقد" وفى "الطاء" من "بطشتنا" وهذه الفتحات المتوالية فيما وراء الطاء إلى واو "وتماروا" مع الفصل بالمد ، كأنها تتقبل لخفة التتابع فى الفتحات إذا هى جرت على اللسان ليكون ثقل الضمة عليه مستخفا بعد ، ولكون هذه الضمة قد أصابت موضعها كما تكون الأحماض فى الأطعمة .

ثم رود نظرك فى الراء فى "تماروا" فإنها ما جاءت إلا

---

(١) إعجاز القرآن للرافعى ص ٢٢٧ .

(٢) سورة القمر / ٣٦ .

مساندة لراء "النذر" حتى إذا انتهى اللسان فى هذه انتهى إليها من مثلها فلا تجف عليه ولا تغلظ ولا تنبو فيه .

ثم اعجب لهذه الغنة التى سبقت الطاء فى نون "أنذرهم" وفى ميمها والصفة الأخرى التى سبقت الذال فى "النذر" .

وما من حرف أو حركة فى الآية إلا وأنت مصيب من كل ذلك عجبا في موقعه والقصد به ، حتى ما نشك أن الجهة واحدة فى نظم الجملة والكلمة والحرف والحركة ليس منها إلا ما يشبه فى الرأى أن يكون قد تقدم فيه النظر وأحكمته الرويه وراضة اللسان ، وليس منها إلا متحير مقصود إليه من بين الكلم ومن بين الحروف ومن بين الحركات .

وأين هذا ونحوه عند تعاطيه ، ومن أى زمن يلتمس ، وعلى أى جهة يستطاع وكيف يأتى للإنسان فى مثل تلك الآية وحدها فضلا عن القرآن كله وهو لا يكون إلا عن نظر وصفته كلاميه ، والبليغ من الرأس حتى انخسف هذا الطريق ولم يكن فى الكلام إلى سجيته وطبعه فقد خذلته البلاغة واستهلكته الصنعة وضاق به التصرف وتناثرت أجزاء كلامه من جهاتها ، وكلما لج فى المكابرة لجت البلاغة فى الاباء ، فمثله كمن يمشى مستديرا ويحسب أنه يتقدم لأنه زعم لم بحرف وجهه ولم ينتقل عن قصده ، ولأن نظره مايزال ثابتا فيما تستقبله (1) .

وانتقد العقاد الرافعى فيما ذهب إليه حيث يقول : وقصارى القول إن المعجزة النبوية يجب أن يثبت لها أمران :

* أنها معجزة من حسن ورجحان .
* وأنها معجزة من قدرة الله وحده لا من قدرة أحد سواه وعلى الذين يتكلمون فى اعجاز القرآن أن يبسطوا القول فى

---

(1) إعجاز القرآن للرافعى ص ٢٢٨ .

هذا وان يقصروا الحجة عليه لأن كل حجة غيرها تحتاج إلى تتمه تبلغ بها إلى هذه النهاية - وسبيل الأستاذ مصطفى صادق الرافعي صاحب كتاب "إعجاز القرآن" الذى بين ايدينا الآن - ان ينحو هذا النحو ويزيد فيه على من تقدمه إذا هو اراد ان يجعل لكتابه ميزة فى البحث المعقود عليه فاما إذا هو قصر فى هذا فليكن كتابه إذن نموذجا فى البلاغة اليدوية أو تسبيحا بالآيات القرآنية أو تحية يقرأها المسلم فيرتاح إليها ويقرأها غير المسلم فلا تزيده بالقرآن علما ولا تطرق من قلبه او عقله مكان الإيمان والتسليم ، ولكن لا يقل عنه أنه كتاب فى إعجاز القرآن وليس فيه مشاهد واحد على معجزات الكلام ولا هو نهيج فيه ذلك المنهج الذى احسن فيه الجرجانى ايما احسان وأفاد به الآداب العربية ايما إفادة فإنما الثناء على القرآن فى كتاب تناهض صفحاتهاالأربعمائة حسنة طيبة يكتب للرافعى اجرها وثوابها عند الله ولكنها لا تكتب فى سجل المباحث والعلوم ولا تعد من حسنات التفكير والاستقراء .

او يعجب الأستاذ الرافعى مما نقول ؟ إذن ليرجع إلى كتابه ، إنه عبر اكثر من مائتى صفحة لا يكاد يلم بشاهد واحد من آية قرآنية او أصل واحد مقرر من أصول البلاغة وانه لما بدا الاستشهاد فى فصل "الكلمات وحروفها" جاء يحدثنا عن نبرات الحروف ونغماتها الموسيقية وموقع كل حرف بجانب ما تقدمه وما يليه كان بلاغة القرآن معلقة على هذا المعنى تثبت بثبوتها وتدحض بادحاضه .

ثم ساق الأمثلة التى سبق أن اومانا إليها فى هذا الفصل ثم قال وهذا نموذج من شواهد الرافعى بعضه نرى انه قد علق فيه بلاغة القرآن على شيء هيهات أن يكون مقصودا أو ساريا فى كل آية على النحو الذى يحكيه وإلا فما يقول الرافعى فى هذه الآية التالية "قيل يانوح اهبط بسلام منا وبركات عليك

وعلى امم ممن معك وامم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب اليم" (١) .

فإن كانت بلاغة الكتاب الكريم مرتهنة بذلك النسق الذى تصوره الأديب فهل يناقض البلاغة فى رأيه توالى الميمات الكثيرة والنون والتنوين فى هذه الكلمات المتعاقبة أو يظن الرافعى هذه الآية بدعا بين آيات الكتاب (٢) .

ب) الألفاظ الطوال فى القرآن :

وقد وردت فى القرآن الفاظ هى اطول الكلام عدد الحروف ومقاطع مما يكون مستثقلا بطبيعة وصفة او تركيبة ، ولكنها بتلك الطريقة التى اومانا إليها الانسجام بين الحروف وحركاتها وبين الكلمات وحروفها - قد خرجت فى نظمه مخرجا سويا ، فكانت من أحضر الألفاظ حلاوة واعذبها منطقا واخفها تركيبا إذ تراه قد هيا لها أسبابا عجيبة تكرار لحروف وتنوع لحركات فلم يجرها فى نظمه إلا وقد وجد ذلك فيها ، كقوله تعالى "ليستخلفنهم فى الأرض" (٣) فهى كلمة واحدة من عشرة أحرف وقد جاءت عذوبتها من تنوع مخارج الحروف ومن نظم حركاتها ، فإنها بذلك صارت فى النطق كأنها أربع كلمات إذ تنطق على أربعة مقاطع .

وقوله تعالى "فسيكفيكهم الله" (٤) فإنها كلمة من تسعة أحرف وهى ثلاثة مقاطع ، وقد تكررت فيها الياء والكاف ، وتوسط بين الكافين هذا المد الذى هو سر الفصاحة فى الكلمة كلها .

---

(١) هود / ٤٨ .
(٢) ساعات بين الكتب عباس محمود العقاد ص ١١ .
(٣) النور / ٥٥   (٤) البقرة / ١٣٧ .

وهذا فى الألفاظ المركبة التى ترجع عند تجريدها من المزايدات إلى الأصول الثلاثية أو الرباعية إما أن تكون اللفظة خماسية الأصول فهذا لم يرد منه فى القرآن شيء لأنه مما لا وجه للعذوبة فيه ، إلا ما كان من اسم عرب ولم يكن فى الأصل عربيا كابراهيم واسماعيل وطالوت وجالوت ونحوها ولا يجئ مع ذلك إلا أن يتخلله المد فتخرج الكلمة وكأنها كلمتان (١) .

من ذلك ندرك أن الرافعى قد قرر - كما سبق إلى ذلك ابن الأثير - أن قبح اللفظة لايكون بسبب طولها ، لأنه لو كان الطول مما يوجب قبحا لقبحت هاتان اللفظتان .

ج) الألفاظ المفردة والمجموعة :

مما لا يسعه طوق إنسان فى نظم الكلام البليغ ، ثم مما يدل على أن نظم القرآن مادة فوق الصنعة ومن وراء الفكر ، فكأنها صبت على الجملة صبا . إنك ترى بعض الألفاظ لم يأت فيه إلا مجموعا ولم يستعمل منه صيغة المفرد ، فإذا احتاج إلى هذه الصيغة استعمل مرادفها .

ومن ذلك "لفظ اللب" فإنها لم ترد إلا مجموعة ، كقوله تعالى "إن فى ذلك لذكرى لأولى الالباب" (٢) وقوله تعالى "لآيات لأولى الألباب" (٣) . ونحوهما ولم تجئ فيه مفردة بل جاء فى مكانها القلب فى قوله تعالى "إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد" (٤) .

---

(١) إعجاز القرآن للرافعى ص ٢٢٩ والمثل السائر لابن الأثير ج ١ /٢٦٤ والجامع لأحكام القرآن للقرطبى ج ١ / ٦٨ .

(٢) ص / ٤٣ .

(٣) آل عمران / ١٩٠ .

(٤) ق / ٣٧ .

وذلك لأن لفظ الباء شديد مجتمع ولا يفضى إلى هذه الشدة إلا من أحلام الشديدة المسترخية ، فلما لم يكن ثم فصل بين الحرفين يتهيأ معه هذا الانتقال على نسبة بين الرخاوة والشدة ، تحسن اللفظة مهما كانت حركة الإعراب فيها نصبا أو رفعا ، أو جرا ، فاستقطها من نظمة بتة على سعة ما بين أوله وآخره ولو حسنت على وجه من تلك الوجوه لجاء بها حسنة رائعة وهذا أعلى أن فيه لفظة "الحب" وهى وزنها ونطقها ، لولا حسن الائتلاف بغير الجيم والباء من هذه الشدة فى الجيم المضمومة .

وكذلك لفظة "الكوب" ، استعملت فيه مجموعة ولم يأت بها مفردة لأنه لا يتهيأ فيها ما يجعلها فى النطق من الظهور والرقة والانكشاف وحسن التناسب كلفظ ، "أكواب" الذى هو الجمع قال الله تعالى "ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قواريرا" (١) وقوله عز شأنه "يطوف عليهم ولدان مخلدون بأكواب وأباريق وكأس من معين" (٢) .

و "الأرجاء" لم يستعمل القرآن لفظها إلا مجموعا ، وترك المفرد وهو "الرجا" أى الجانب ـ لعله لفظه ، وأنه لا يسوغ فى نظمه .

وعكس ذلك لفظة "الأرض" فإنها لم ترد فيه إلا مفردة فإذا ذكرت السماء مجموعة جئ بها مفردة فى كل موضع منه ، ولما احتاج إلى جمعها أخرجها على هذه الصورة التى ذهبت بسر القصامة وذهب بها ، حتى خرجت من الروعة بحيث يسجد لها كل فكر سجدة طويلة وهى فى قوله تعالى ، "الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن" (٣) ولم يقل وسبع أرضين ، لهذه الجساة التى تدخل اللفظ ويختل بها النظم اختلالا ، وأنت فتأمل رعاك الله ذلك الوضع البيانى

---

(١) الدهر / ١٥ . (٢) الواقعة ١٧ - ١٨ . (٣) الطلاق / ١٢

واعتبر مواقع النظم ، وانظر هل تتلاحق هذه الأسباب الدقيقة لو تعيسر مادتها الفكرية لأحد من الناس فيما يتعاطاه من الصناعة أو بتكلفة من القول وإن استعصى فيه الذرائع وبالغ الأسباب وأحكم ما قبله وما وراءه .

د) موسيقا الألفاظ القرآنية :

ومن الألفاظ لفظ « الآجر » وليس فيها من خفة التركيب إلا الهمزة وسائرها نافر متقلقل لا يصلح مع هذا المد في صوت ولا تركيب على قاعدة نظم القرآن لما احتاج إليها لنظها ولفظ مرادفها وهو "القرمد" وكلاهما استعمله فصحاء العرب ولم يعرفوا غيرها ، ثم اخرج معناها بالطف عبارة وارقها واعذبها وساقها في بيان مكشوف يفصح الصبح وذلك في قوله تعالى ، " وقال فرعون يأيها الملأ ما علمت لكم من إله غيرى فاوقد لى يا هامان على الطين فاجعل لى صرحا" (١) .

فانظر هل تجد فى سر الفصاحة وفى روعة الإعجاز أبرع وابدع من هذا ؟ وأى عربى فصيح يسمع مثل هذا النظم وهذا التركيب ولا يملكه حسه ولا يسوغه حقيقة نفسه ولا يجن به جنونا ، ولا يقول آمنت بالله ربا وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبيا وبالقرآن معجزة ؟

وتامل كيف عبر عن الآجر بقوله "فاوقد لى يا هامان على الطين" وانظر موقع هذه التلقلة التى هى فى الدال من قوله "فاوقد" وما يتلوها من رقة اللام فإنها أثناء التلاوة مما لا يطاق أن يعبر عن حسنه وكأنما تنتزع النفس انتزاعا .

وليس الإعجاز فى تلك العبارة فحسب ، ولكن ما ترمى

---

(١) القصص / ٣٨ .

إليه إعجاز آخر ، فإنها تحقر شان فرعون ، وتصف ضلاله وتسفه رايه ، إذ طمع ان يبلغ الأسباب أسباب السموات فيطلع إلى إله موسى ، وهو لا يجد وسيلة إلى ذلك المستحيل ولو نصبت الأرض سلما إلا شيئا يصنعه هامان من الطين .

وفي التعبير حكمة اخرى جليلة : تلك ان فرعون يريد ان يبنى صرحا يبلغ به السماء فعبر بالإيقاد على الطين تهكما على فرعون ، لأن البناء في مثل هذا لا يزال يرتفع بلا نهايه ، وإعداد الآجر يجب ان يكون كذلك مستمرا باستمرار الإبقاء على الطين .

ثم تشعر العبارة أن النتيجة لا شيء فكأنه لم يخرج لا بناء ولا مبينا به وما هو إلا البدء والاستمرار في البدء (١) .

هـ) الألفاظ الغريبة :

في القرآن الفاظ اصطلح العلماء على تسميتها بالغرائب وليس المراد بغرابتها أنها متنكرة أو نافرة أو شاذة ، فإن القرآن منزه عن هذا جميعه .

والمقصود بالألفاظ الغريبة ها هنا التي تكون حسنة مستغربة في التاويل بحيث لا يتساوى في العلم أهلها وسائر الناس (٢) .

وجملة ما عدوه من ذلك في القرآن كله سبعمائة لفظة أو تزيد قليلا جميعها روى تفسير بالسند الصحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما وهو ذلك المعجم اللغوي الحي الذي كانوا يرجعون إليه ، كان رحمه الله يقول الشعر ديوان العرب فإذا

---

(١) إعجاز القرآن للرافعي ص ٢٣٣ .

(٢) إعجاز القرآن للرافعي ص ٧١ .

خفى علينا الحرف من القرآن الذى انزله الله بلغة العرب رجعنا إلى ديوانها فالتمسنا معرفة ذلك منه (١) .

وتنشأ الغرابة فيما عدوه من الغريب أن يكون ذلك من لغات متفرقة أو تكون مستعملة على وجه من وجوه الموضع يخرجها مخرج الغريب كالظلم والكفر ، والإيمان ونحوها مما نقل عن مدلولة فى لغة العرب إلى المعانى الإسلامية المحدثة .

أو يكون سياق الألفاظ قد دل بالقرينة على معنى غير الذى يفهم من ذات الألفاظ كقوله تعالى "فإذا قرأناه فاتبع قرآنه" (٢) أى فإذا بيناه فاعمل به .

وكان الصحابة رضى الله عنهم يسمون فهم هذا الغريب (إعراب القرآن) لأنهم يثبتون معانيه ويخلصونها ، فقد روى أبو هريرة رضى الله عنه فى ذلك ، "أعربوا القرآن والتمسوا غرائبه" (٣) (٤) .

ومن الألفاظ الغريبة - وهى من اغرب ما فيه - وما حسنت فى كلام قط إلا فى موقعها منه وهى كلمة "ضيزى" (٥) "من قوله تعالى "تلك إذن قسمة ضيزى" (٦) ومع ذلك فإن

---

(١) الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى ج ١ / ٣١ - ١٣٢ .
(٢) القيامة / ١٨ .
(٣) إعجاز القرآن للرافعى / ٧١ .
(٤) معجاز القرآن للرافعى ص ٧١ - ٧٣ وج ١ / ٦٩ من تفسير القرآن العظيم لابن كثير والجامع لأحكام القرآن للقرطبى ج ١ / ٣٣ .
(٥) يقال ضازة حقة وضامة أى منعه ونقصه ، فهى قسمة جائرة ، والضيز ، الجور .
(٦) النجم / ٢٢ .

حسنها في نظم الكلام من اغرب الحسن واعجبه ولو أردت اللثة عليها ما صلح لهذا الموضع غيرها ، فإن السورة التى هى منها وهى سورة النجم ، مفصلة كلها على الياء فجاءت الكلمة فاصلة من الفواصل .

ثم هى فى معرض الإنكار على العرب ، إذ وردت فى ذكر الأصنام وزعمهم فى قسمة الأولاد ، فإنهم جعلوا الملائكة والأصنام بنات للهمع اولادهم البنات (١) . فقال تعالى " ألكم الذكر وله الأنثى تلك إذن قسمة ضيزى" فكانت غرابة اللفظ اشد الأشياء ملاءمة لغرابة هذه القسمةالتى انكرها ، وكانت الجملة كلها كانها تصور فى هيئة النطق بها الانكار فى الأولى والتهكم فى الأخرى وكان هذا التصوير أبلغ ما فى البلاغة ، وخاصة فى اللفظة الغريبةالتى تمكنت فى موضعها من الفصل ، ووصفت حالة المتهكم فى انكاره من إمالة اليد والرأس بهذين المدين فيها إلى الأسفل والأعلى وجمعت إلى كل ذلك غرابة الإنكار بغرابتها اللفظة .

وإن تعجب فعاجب لنظم هذه الكلمة الغريبة وائتلافه على ما قبلها إذ هى مقطعان احدهما ، مد ثقيل .

والآخر ، مد خفيف وقد جاءت عقب غنيتين فى "إذن" ود قسمة) ، أحدهما خفيفة حادة والأخرى ثقيلة متفشية فكأنها بذلك ليست إلا مجاورة صوتية لتقطيع موسيقى وهذا معنى رابع للثلاثة التى عددناها آنفا .

اما خامس هذه المعانى فهو أن الكلمة التى جمعت المعانى الأربعة على غرابتها إنما هى اربعة أحرف أيضا (١) ، (٣) .

---

(١) اى دفنهم على الحياة كما كان من عاداتهم .
(٢) إعجاز القرآن للرافعى ص ٢٣٠ - ٢٣١ .
(٣) السابق إعجاز القرآن للرافعى ص ٢٣٠ .

والعرب يعرفون هذا الضرب من الكلام وله نظائر في لغتهم ، وكم من لفظة غريبة عندهم لا تحسن إلا في موضعها ولا يكون حسنها على غرابتها إلا انها تؤكد المعنى الذي سبقت لها بلفظها وهيئة منطقها ، فكان في تأليف حروفها معنى حسيا وفي تآلف اصواتها معنى شكله في النفس .

و) الكلمات التي يظن النحاة أنها زائدة في القرآن :

تساهل قوم فاطلقوا الزائد على معنى الحروف "ما" في نحو قوله " فبما رحمة من الله لنت لهم" (١) فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيرا (٢) فإن النحاة يقولون إن "ما" في الآية الأولى وإن في الثانية زائدة في الأعراب ، فيظن بعض من لا بصر له أنهم كذلك في النظم ويقيس عليه ، مع أن في هذه الزيادة لونا من التصوير لو هو حذف من الكلام لذهب بكثير من حسنه وروعته ، فان المراد بالآية الأولى تصوير لين النبي صلى الله عليه وسلم لقوه وأن ذلك رحمة من الله ، فجاء هذا المد في "ما" وصفا لفظيا يؤكد معنى اللين ويفخمه .

وفوق ذلك فإن لهجة النطق به تشعر بانعطاف وعناية لا يبتدأ هذا المعنى بأحسن منهم في بلاغة السياق .

ثم كان الفصل بين الباء الجارة ومجرورها وهو لفظ "رحمة مما يلفت النفس إلى تدبر المعنى وينبه الفكر على قيمة الرحمة فيه ، وذلك كله طبيعي في بلاغة الآية كما ترى .

والمراد بالثانية تصوير الفصل الذي كان بين قيام البشير بقميص يوسف وبين مجيئه لبعد ما كان بين يوسف وأبيه عليهما السلام وأن ذلك كأنه كان منتظرا بقلق واضطراب

---

(١) آل عمران / ١٥٩ .   (٢) يوسف / ٩٥ .

تؤكدهما ونصف الطرب لمتقدمه واستقراره عنه هذه النون في الكلمة الفاصلة وهي "أن" في قوله "أن جاء" (١) .

وعلى هذا يجرى كل ما ظن أنه في القرآن مزيد ، فإن اعتبار الزيادة فيه وإقرارها لمعناها ، إنما هو نقيض يجل عنه القرآن عنه ، وليس يقول بذلك إلا رجل يعتسف الكلام ويقضي فيه بغير علمه أو بعلم غيره .

فما في القرآن حرف واحد إلا ومعه رأى يسنح في البلاغة من جهة نظمه أو دلالته أو وجه اختياره ، بحيث يستحيل البته أن يكون فيه موضع قلق ، أو حرف نافر أو جهة غير محكمة أو شيء مما تنفذ في نفذة الصفة الإنسانية من أي أبواب الكلام إن وسعها منه باب ولكنك واجد في الناس من ينقبض ذرعه وتعصر به علمه ولا يدع مع ذلك أن يتقدم علم الأمر لا يعرف من أين مطلعه ومأتاه فيمضي القول على ما جمل ويفتي بما اختال ، ولا يمنعه تقصيده من أن يستظل به ولا استطالة من أن يكابر عليها ، ولا مكابرته من اللجاج فيها ، فيخطئ صواب القول إن قال ، ثم يخطئ الثانية في تصويب خطئه إن احتج وما في الخطأ جهة ثالثة إلا أن يصر على الخطأ (٢) .

والذي تطمئن إليه النفس أنه يجب على المؤمن تجنب هذا اللفظ في القرآن إذ الزائد ما لا معنى له ، وكلام الله منزه عن ذلك ، يقول الحافظ بن كثير : أنه لا زائد في القرآن وأن هذا ممتنع إذ لو كان هناك ما هو زائد يعد لغوا ، وكيف يوجد اللغوى في القرآن وقد أنزله من "كل شيء

---

(١) إعجاز القرآن للرافعي ص ٢٣١ ويراجع تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج ١ / ٤٥٨ ، ص ٦٩ ، ج ٢ / ٦٥ .

(٢) إعجاز القرآن للرافعي ص ٢٣٢ والبرهان في علوم القرآن للزركشي ج ٢ / ١٧٨ .

عنده بمقدار" (١) .

يقول في تفسير قوله تعالى "فإن كن نساء فوق اثنين فلهن ثلثا ما ترك" (٢) قال بعض الناس قوله "فوق" زائدة ، وتقديره فإن كن نساء اثنتين كما في قوله "فاضربوا فوق الأعناق" (٣) وهذا غير مسلم لا هنا ولا هنا فإنه ليس في القرآن زائد لا فائدة فيه وهذا ممتنع .

ثم قوله "فلهن ثلثا ما ترك" لو كان المراد ما قالوه لقال ، فلهما ثلثا ما ترك وإنما استفيد كون الثلثين للبنين من كلمةالأختان في الآية الأخيرة فإنه تعالى حكم فيها للأختين بالثلثين وإذا ورثت الأختان الثلثان فلان يرث البنتان الثلثين بالطريقة الأولى (٤) وقال في قوله تعالى "وإذ قال ربك للملائكة" (٥) حكى ابن جرير عن بعض أهل العربية وهو أبو عبيدة أنه زعم أن "إذ" ها هنا زائدة وان تقدير الكلام ، وقال ربك ورده ابن جرير . قال القرطبي ، وكذا رده جميع المفسرين حتى قال الزجاج ، هذا اجترام من ابن عبيدة . ذكر الله عز وجل خلق الناس وغيرهم ، فالتقدير ، وابتدأ خلقكم إذ قال ، فكان هذا من المحذوف الذي دل عليه الكلام (٦) .

ز) الألفاظ المعربة :

عد العلماء في القرآن من غير لغات العرب أكثر من مائة لفظة ترجع إلى لغات الفرس والروم والنبط والحبشة والبربر والسريان والعبران والقبط .

---

(١) الرعد / ٨ . (٢) النساء / ١١ . (٣) الأنفال / ١٢ .
(٤) ابن كثير ج ١ / ٤٥٨ وابن كثير منهجه وتأثيره للدكتور إسماعيل سالم عبد العال ص ٢٦٠ .
(٥) البقرة / ٣٠ .
(٦) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ج ١ / ٢٦١ - ٢٦٢ .

وهي كلمات اخرجتها العرب على أوزان لغتها وأجرتها في فصيحها فصارت بذلك عربية ، وإنما وردت في القرآن ، لأنه لا يسد مسدها إلا أن توضع لمعانيها ألفاظ جديدة على طريقة الوضع الأولى ، فيكون قد خاطب العرب بما لم توقفهم عليه وما لا يدركون بفطرتهم اللغوية وجه التصرف فيه ، وليس ذلك مما يستقيم به أمر ولا هو عند العرب من معاني الإعجاز في شيء ، لأن الوضع يعجز اهله وهم كانوا أهل اللغة .

ولذا قال العلماء في تلك الألفاظ المعربة التي اختلطت بالقرآن إن بلاغتها في نفسها انه لا يوجد غيرها يغني عنها في مواقعها من نظم الآيات لا إفرادا ولا تركيبا وهو قول يحس بعد الذي بيناه (١) .

واستدلوا بان النبي صلى الله عليه وسلم ارسل إلى الناس كافة وقد قال الله تعالى "وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه (٢) فلابد أن يكون في الكتاب المبعوث به من لسان كل قوم وان كان أصله بلغة قومه هو .

فمثلا لفظ "استبرق" ليس بعربي وقد يقال ان غير العربي من الألفاظ دون العربي في الفصاحة والبلاغة فنقول : لو اجتمع فصحاء العالم وأرادوا ان يتركوا هذه اللفظة ويأتوا بلفظ يقوم مقامها في الفصاحة لعجزوا عن ذلك وذلك لأن الله تعالى إذا حث عباده على الطاعة فإن لم يرغبهم بالوعد الجميل ويخوفهم بالعذاب الوبيل - لا يكون حثه على وجه الحكمة فالوعد والوعيد نظرا إلى الفصاحة واجب ثم إن الوعد بما يرغب فيه العقلاء وذلك نحصر في أمور الأماكن الطيبة ثم المآكل الشهية ، ثم المشارب الهنية ، ثم الملابس الرفيعة ،

---

(١) إعجاز القرآن للرافعي ص ٧٢ ومعترك الأقران ج ١/١٩٧ في إعجاز القرآن .

(٢) إبراهيم / ٤ .

ثم المناكح اللذيذة ،ثم ما بعده مما تختلف فيها الطباع فإن ذكر الأماكن الطيبة والوعد به لازم عند الفصيح ولو يتركه لقال من أمر بالعبادة ووعد عليها بالأكل والشرب ، إن الأكل والشرب لا التذاذ به ، إذا كنت في حبس أو موضع كربة ، فلذا ذكر الله الجنة ومساكن طيبة فيها ، وكان ينبغي أن يذكر من الملابس ما هو أرفعها في الدنيا الحرير .

ح) الوجوه والنظائر والأفراد :

الوجوه هو ما اتفق لفظه واختلف معناه كلفظ « الهدى » حيث ورد في القرآن الكريم على أربعة عشر وجهاً : الثبات (١) ودين الإسلام (٢) والدعاء (٣) والبيان (٤) والإيمان (٥) وأمر محمد صلى الله عليه وسلم (٦) والقرآن (٧) والتوراة (٨) والتوحيد (٩) والسنة (١٠)

---

(١) قال تعالى (اهدنا الصراط المستقيم) الفاتحه / ٥ أي ثبتنا عليه .
(٢) قال عز شأنه (إن هدى الله هو الهدى) البقرة / ١٢٠ .
(٣) قال جل ثناؤه (ولكل قوم هاد) الرعد / ٧ .
(٤) ومنه قوله تعالى (أولئك على هدى من ربهم) البقرة / ٣٢
(٥) قال تعالى (وزدناهم هدى) الكهف / ١٣ .
(٦) ومنه (من البينات والهدى) البقرة ١٥٩ .
(٧) قال تعالى (وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى) الإسراء على ٩٤ .
(٨) قال تبارك اسمه (ولقد آتينا موسى الهدى) غافر/٣٥
(٩) ومنه (هو الذي أرسل رسوله بالهدى) التوبة / ٣٣ .
(١٠) ومنه (على آثارهم مهتدون) الزخرف / ٢٢ .

والإلهام (١) والصلاح (٢) والرسول (٣) والموت على الإسلام (٤) .

والنظائر هي الألفاظ المشتركة والمتواطئة والترادفة ، وبيان معانيها المختلفة ، فالمشترك من الألفاظ هو اللفظ الواحد الذى يطلق على موجودات كثيرة مختلفة اطلاقا متساويا ، كالعين يطلق على الباصرة ، وعلى المال الحاضر وعين الميزان وينبوع الماء ... الخ .

والتواطئ من الألفاظ هو الذى يدل على اعيان متعددة بمعنى واحد مشترك بينها كالإنسان ، يطلق على زيد ، وعمرو ، وكالحيوان يطلق على الإنسان والفرس والطير .

والمترادف من الألفاظ هو ما اختلفت دلالته على المعنى الذى يندرك تحت حد واحد كالخمر والراح والعقار ، فكلها بمعنى واحد ، وهو المانع المسكر المعتصر من العنب (٥) .

وعلى هذا فإن النظائر إسم الألفاظ ، والوجوه إسم المعانى ، وفى هذا صورة من صور الإعجاز فى القرآن ، حيث لا يوجد ذلك فى كلام البشر .

اما الافراد فهى الفاظ تجيء بمعنى مفرد غير المعنى الذى تستعمل فيه عادة يقول ابن فارس كل ما فى القرآن من ذكر الأسف فمعناه الحزن ، إلا قوله تعالى "فلما آسفونا انتقمنا منهم" (٦) فمعناه اغضبونا .

---

(١) ومنه (قدر فهدى) الأعلى / ٣ .
(٢) ومنه (لا يهدى كيد الخائنين) يوسف / ٥٢ .
(٣) ومنه (فاما يأتينكم من هدى) طه / ١٢٣ .
(٤) ومنه (ثم هدى) طه / ٥٠ .
(٥) قرة العيون النواظر فى الوجوه والنظائر لابن الجوزى ص
(٦) الزخرف / ٥٥ .

وكل ما فيه من ذكر البروج فهى الكواكب ، إلا قوله تعالى "ولو كنتم فى بروج مشيدة" (١) فهى القصور الطوال الحصينة .

وكل ما فيه من ذكر البر والبحر ، فالمراد بالبحر الماء وبالبر التراب إلا قوله تعالى "ظهر الفساد فى البر والبحر" (٢) فالمراد به البرية والعمران (٣) وكل ما فيه من "البعل" فهو الزوج إلا قوله تعالى "أتدعون بعلا" (٤) فهو الصنم .

وكل ما فيه من "البكم" بالخرس عن الكلام بالإيمان إلا "عميا وبكما وصما" (٥) و "أحدهما أبكم" (٦) فالمراد عدم القدرة على الكلام مطلقا .

وكل ما فيه "جثيا" فمعناه جميعا ، إلا "وترى كل أمة جاثية" فمعناه تجثو على ركبها .

وكل ما فيه "حسبان" فمن العدد إلا قوله تعالى "حسبانا من السماء" (٧) فهو العذاب .

وكل ما فيه من حسرة ، فالندامة إلا "ليجعل الله ذلك حسرة فى قلوبهم" (٨) فمعناه الحزن .

وكل ما فيه من الدحض ، فالباطل إلا "فكان من

---

(١) النساء / ٧٨ . (٢) الروم / ٤١

(٣) إعجاز القرآن للرافعى ص ٧٣ .

(٤) الصافات / ١٢٥ (٥) الإسراء / ٩٧ (٦) النحل / ٧٦

(٧) إعجاز القرآن للرافعى ص ٧٣ .

(٨) آل عمران / ١٥٦

المدحضين" (١) فمعناه من المغلوبين .

وكل ما فيه من رجز فالعذاب إلا قوله تعالى "والرجز فاهجر" (٢) فالمراد به الصنم .

وكل ما فيه من "ريب" فالشك إلا قوله تعالى "ريب المنون" يعنى حوادث الدهر .

وكل ما فيه من "الرجيم" فالقتل إلا قوله "لرجمناك" (٣) اى لشتمناك وقوله تعالى "رجما بالغيب" (٤) اى ظنا .

وكل ما فيه من "الزور" فالكذب من الشرك إلا "منكرا من القول وزورا" (٥) فإنه كذب غير شرك .

وكل ما فيه من زكاة "فالمال" إلا "وحنانا من لدنا وزكاة" (٦) اى طهرة وكل ما فيه من "الزيغ" فالميل ، إلا "وإذ زاغت الأبصار" (٧) أى شخصت (٨) .

ط) الأسماء الجامدة :

يرى الرافعى انه "ما يشذ فى القرآن حرف واحد عن قاعدة نظمه المعجز حتى إنك لو تدبرت الآيات التى لا تقرأ

---

(١) الصافات / ١٤١
(٢) المدثر / ٥
(٣) هود / ٩١
(٤) الكهف / ٢٢
(٥) المجادلة / ١
(٦) مريم / ١٣
(٧) الأحزاب / ١٠
(٨) معترك الأقران فى إعجاز القرآن للسيوطى ج ٣ / ٥٦٣

إلا ما يروه من الأسماء الجامدة وهي بالطبع مظنة ان لا يكون فيها شيء من دلائل الإعجاز ، فإنك ترى إعجازها ابلغ ما يكون في نظمها وجهات سردها ، ومن تقديم إسم على غيره أو تأخيره عنه بالنظم حروفه ومكانه من النطق في الجملة ، أو لنكتة اخرى من نكت المعاني التي وردت فيها الآية بحيث يوجد شيئا فيها ليس فيه شيء .

تأمل قوله تعالى "وارسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات «١» فإنها خمسة اسماء أخفها في اللفظ "الطوفان والجراد والدم" واثقلها "القمل والضفادع" فقدم "الطوفان لمكان المدين فيها حتى يانس اللسان بخفتها ، ثم الجراد وفيها كذلك هو ، ثم جاء باللفظين الشديدين مبتدئا باخفهما في اللسان وأبعدهما في الصوت لمكان تلك الغنة فيه ثم جئ بلفظة "الدم" آخرا وهي اخف الخمسة ، واقلها حروفا ليسرع اللسان فيها ويستقيم لها ذوق النظم ويتم بها هذا الإعجاز في التركيب .

وانت مهما قلبت هذه الأسماء الخمسة ، فإنك لا ترى لها فصاحة إلا في هذا الوضع لو قدمت او اخرت لبادرك التهافت والتعثر ، ولأعنتك ان تجيء منها بنظر فصيح ، ثم لا ريب احالك ذلك عن قصد الفصاحة ، وقطعك دون غايتها ثم لخرجت الأسماء في اضطراب النطق على ذلك بالسواء ، ليس يظهر اخفها من ثقلها ، فانظر كيف يكون الإعجاز بطبيعته «٢» .

مما سبق ندرك ان القرآن إنما أعجز في اللغة بطريقة النظم وهيئة الوضع ولن تستوى هذه الطريقة إلا بكل ما فيه على جهته ووضعه ، فكل كلمة منه ما دامت في موضعها فهي من بعض إعجازه .

---

(١) الأعراف ١٣٣ (٢) إعجاز القرآن للرافعي ص ٢٢٤-٢٢٥ .

ومن اجل هذا كان القرآن الكريم فى نظمه وتركيبه على الأصل الذى أومانا إليه نمطا واحدا في القوة والإبداع والإعجاز ولا تقع منه على لفظ واحد يخل بطريقته ما دامت تنعطف على جوانب هذا الكلام الإلهى ومادام فى موضعه من النظم والسياق .

ى) الترجمة الحرفية :

إن الإنسان ليحار إذا تامل تركيب القرآن الكريم ونظم كلماته في الوجوه المختلفة التى يتصرف فيها ، وتقعد به العبارة إذا حاول ان يمعن في وصفه حتى لا يرى فى اللغة كلها ادل على غرضه وأجمع لما فى نفسه وأبين لهذه الحقيقة ، غير كلمة الإعجاز ، "وما عسى ان نقول فى كلام ترى اللفظ من الألفاظ فيه معنى ، ثم ترى كأن لهذا المعنى فى التركيب معنى آخر ، فهو الذى يفيض على النفس ، ويتصل بها ، فكأنه كلام مداخل وكان اللغة فيها لغتان .

ثم ما أنت قائل فى كلام جاء من الإبداع فى التاليف ، ومن وجوه التفنن فى تلوين المعانى بحيث نفى العرب جميعا عن لغتهم وهم فى أرقى ما اتفق لهم من الصورة اللغوية وأستبد بها دونهم واستغرق كل ما جاء به من محاسن البيان حتى لم يدع لمن يقابل بينه وبين كلامهم إلا حكما واحدا تنتهى إليه المقالة من اى جهاتها مسلك ، وهو ان العرب اوجدوا اللغة مفردات فانية وأوجدها القرآن تراكيب خالدة .

ثم ماذا يبلغ القول من صفة هذا التركيب العجيب وانت ترى أن اعجب منه مجيئه على هذا الوجه الذى ستنفذ كل ما فى العقول البيانية من الفكر وكل ما فى القوى من أسباب البحث كأنما ركب على مقادير العقول والقوى والات العلوم وأحوال العصور المغيبة ، فتراه يتخير من الألفاظ على درجات ليس معنى العجب فيها ان يقع التحير عليها ، ولكن العجب

ان تستجيب الفاظه على هذا الوجه المعجز الذى لا يكون إلا في اللغة إلا عن قدرة هى عين القدرة التى الهمت أهلها الوضع والتعبير وتشقيق الكلام ، حتى حصلت لغتهم كاملة فى كل ذلك .

اى معنى اعجب من ان تتجاذبك معانى الوضع فى الفاظ القرآن فترى اللفظ قادرا فى موضعه لأنه الأليق فى النظم ، ثم لأنه مع ذلك الأوسع فى المعنى ، ومع ذلك الأقوى فى الدلالة ، ومع ذلك الأحكم فى الإبانة ومع ذلك الأبدع فى وجوه البلاغة ومع ذلك الأكثر مناسبة لمفردات الآية مما يتقدمه أو يترادف عليه ، حتى خرج بذلك كله فى تركيب قصر معارضته أن تنتهى إليه بعينه ولا مثل له إلا ما يتردد منه على لسان قارئه وحتى خرج التعبير عن معانيه بالفاظ اخرى من نفس اللغة العربية مخرج الترجمة إلى غير ذلك من اللغات إذ لم تحمل لغة من لغات الأرض حقيقة ما تعنيه الفاظه على تركيبها المعجز بل هو فى ذلك يعجزها جميعا ويخرج عن طوق أهلها وإن تساندوا فيه .

وإنما جهد ما تبلغه تلك اللغات أن تجيء بشبه معانيه ، قصدا فى بعضها ومقاربة فى بعضها مع الاستعانة بالشرح المبسوط والعبارة الملونة وعلى أنه ليس ضربا من ضروب الصناعات اللفظية التى لا يتفق فيها أن تنقل من لغة إلى لغة .

لذلك حرموا ترجمة القرآن إلى اللغات فإن الترجمة لا تؤديه البته ولو هى ادت معانيه كما فهم أهل عصر ، بقى منها ما ستفهمه العصور الأخرى . واشهر وادق ترجمة للقرآن فى اللغة الفرنسية ترجمت فيها هذه الآية : « هن لباس لكم وانتم لباس لهن » (١) .

فكانت الترجمة هكذا : هن بنطلونات لكم وانتم بنطلونات لهن .... وكيف لعمرى يمكن أن يترجم هذه الكتابة الدقيقة وجه من وجوه إعجاز القرآن للغات العالم كافة (٢) .

إن من اعجب ما يحقق الإعجاز ان معانى هذا الكتاب الكريم لو البست الفاظا اخرى من نفس العربية ، ما جاءت فى نمطها وسمتها والإبلاغ عن ذات المعنى لا فى حكم الترجمة ، ولو تولى ابلغ بلغائها ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ، فقد ضاقت اللغة عنده على سعتها حتى ليس لمعانية غير الفاظه باعيانها وتركيبها ومتى كانت المعارضة والترجمة سواء إلا فى المعجز الذى يساويه بين القوى فى المعجز وهى بعد فى ذات بينها مختلفات .

---

(١) البقرة / ١٨٧ .

(٢) إعجاز القرآن للرافعى ص ٢٤٨ .

٣ - غرابة أوضاعه التركيبية

إذا أمعنت النظر فى تراكيب القرآن الكريم لا ترى كيفما أخذت عينك منه إلا وصفا غريبا فى تاليف الكلمات وفى مساق العبارة ويدلك الرافعى على ذلك بعدة أمور :

(١) بالمعجم التركيبى .
(٢) وباعتراف البلغاء بإعجاز القرآن الكريم .
(٣) إشتمال القرآن على فنون البلاغة .
(٤) طريقة القرآن النفيسة فى البلاغة .

٣ - غرابة أوضاعه التركيبية

إذا أمعنت النظر فى تراكيب القرآن الكريم لا ترى "كيفما أخذت عينك منه إلا وضعا غريبا فى تأليف الكلمات ، وفى مساق العبارة ، وبحيث تبادرك غرابته من نفسها وطباعها بما تقطع أن هذا الوضع وهذا التركيب ليس فى طبع الإنسان ولا يمكن أن يتهيأ له ابتداء واختراعا دون تقديره على وضع يشبهه ، أو احتذاء لبعض أمثلة تقابله لا تحتاج فى ذلك إلى اعتبار ولا مقايسة ...

ولو ذهبت تغلى كلام العرب شعرائهم ورجز رجازهم وخطب خطبائهم وحكمة حكمائهم وسجع كهانهم من مضى منهم ومن غير على أن تجد ألفاظا فى غرابة تركيبها « التى هى صفة الوحى » كألفاظ القرآن ، وعلى أن ترى أن لها معانى كهذه المعانى الإلهية التى تكسب الكلام غرابة أخرى يحس لها طبع المخلوق ويعتريه لها من الروعة ما يعترى من الفرق بين شىء إلهى وشىء إنسانى - لما أصبت فى كل ذلك مما تختاره إلا لغة وأوضاعا ومعانى إنسانية ، تقع بجملتها دون قصدك الذى أردت ، ولا برضاه للتمثيل والمقابلة ولا تراها تحل من القرآن إلا فى محل نافر ولا تنزل منه إلا فى قاسية شاردة ثم لو وجدت فرق الغرابة الإلهية بين اثنيتهما فى الكلام عين ما تعرفه من الفرق بين الماء فى سحابة ، والماء فى ترابه"[1].

أ) ثم يبين لنا الرافعى أن البلغاء قد اعترفوا بغرابة أسلوب القرآن الكريم وعجزهم عن التطلع إلى الإتيان بمثله لأنهم يعلمون أن تركيب القرآن شىء بالتوقيف الإلهى ، مهما ترددت قراءة القرآن وألفه الناس فى كل عصر يبقى إعجازه لهم يقول :

"وما من بليغ يتدبر هذه الأوضاع فى القرآن ، ثم تحدثه النفس أن خاطرا إنسانيا يتشوف إلى مثلها ، أو يصل بها

---

(١) إعجاز القرآن للرافعى ص ٢٤٩ .

سببا من أسباب المطمعة ، أو يظن أنه قادر عليها أو يرى غرابة الوضع في تركيب الألفاظ أشبه شيء بالتوقيف الإلهي في وضع الألفاظ نفسها لو كان وضعها ابتداء واختراعا في. اللغة وكان كذلك في زمنه - أي البليغ - أو بمعنى منه بحديث كظهر له غرابة الوضع اللغوي خالصة جديدة لاشوب فيها مما بألفه السمع ، أو تمكنه العادة ، أو نحو ذلك مما يحيل الغريب مأنوسا أو يأخذ من غرابته أو صقل بعض جهاتها فينظر الأمر الغريب وكأنه غير ما هو في نفسه " (١) .

ب) ومع تلك الغرابة في التركيب نجد ألفاظ القرآن الكريم متسقة متمكنة ، موضوع كل لفظ في موضعه لا ينفر لفظ من آخر ، واتساق الألفاظ مع بعضها يدل دلالة واضحة على أنه القرآن من عند الله تعالى ، يقول الرافعي : "على أنه لا يجد مع تلك الغرابة في أوضاع القرآن إلا ألفاظا مؤتلفة متمكنة ، إلتئام سردها ويتناصف وجوهها لا ينازع لفظ واحد منها إلى غير موضعه ، ولا يطلب غير جهته من الكلام . ولعمري أن اتفاق هذا الإحكام العجيب مع غرابة الوضع ، لهو أغرب منها في مذهب البلاغة وادخل في باب العجب ، ولولا أن الأمر إلهي ، ولا عجب من قدرة الله" ويمضي الرافعي في مسيرته مبينا لنا أن كل العلماء قد مضوا على أن ألفاظ القرآن متميزة من جنسها فحيثما وجد منها تركيب في نسق من الكلام دل على نفسه ، وأشارت محاسنه إليه ، وزين الكلام وجمله ، وسبب ذلك أنه من الصنعة الإلهية في معانيه ، يقول الرافعي :

وكل العلماء قد مضوا على أن ألفاظ القرآن بائنة بنفسها ، متميزة من جنسها فحيثما وجد منها تركيب في نسق من الكلام دل على نفسه وأومأت محاسنه إليه ، ورأيته قد وشح ذلك الكلام ، وزينه ، وحرك النفس إلى موضعه منه . وهو

---

(١) إعجاز القرآن للرافعي ص ٢٥٠ .

يعد أمر واقع لا وجه للمكابرة فيه ، ولا نعرف له سببا إلا ما إلا ما بيناه من الصفة الإلهية في معانيه ، وغرابة الوضع التركيب في ألفاظه ، فإن ذلك يترك منزلة الوضع الجديد في الكلام المألوف ، فلا ينبى الوضع الغريب عن نفسه بأكثر مما تدل عليه اللغة المانوكس الذى يحيط به ، ومن أجل ذلك كله قلنا أن العرب أوجدوا اللغة مفردات فانية وأوجدوا القرآن تراكيب خالدة وأن لهذه اللغة معاجم كثيرة تجمع مفرداتها وأبنيتها ، ولكن ليس لها معجم تركيبي غير القرآن «١» ... ثم يقول الرافعي دواما لأنه المعجم التركيبي لأنه أصل فنون البلاغة كلها فما يقوم في المنطق العربي نوع بليغ إلا هو فيه على أحسن ما يمكن أن يتفق على جهته في الكلام . فكان العرب يتلقون عنه البلاغة لأنهم كانوا ذوى إحساس لغوى ، هو إحساس الفطرة ، ومن هذا كانت دهشتهم له وكان عجبهم منه ولم يوجد في الأرض أمة استوفت وجوه البلاغة في لغتها من كتاب واحد غير أمة العرب «٢» .

ج) ويرى الرافعي أن القرآن قد اشتمل على فنون البلاغة المختلفة من استعاره أو كناية أو مجاز أو تكرار أو إطناب أو إيجاز ، لأنه لو خرج عن ذلك لخرج من أن يكون معجزا في جهة من جهاته والعلماء يقولون إن كل ذلك فنون من البلاغة وقع بها الإعجاز . ويرى الرافعي أن القرآن معجزة العربية لأن الفطرة والعقل لا يبلغان مبلغه في طريقتي البيان والمنطق .

وأن إدامة النظر والتأمل في القرآن في كل من معانيه وفي ارتباط الألفاظ بما قبلها وما بعدها وتدبر الألفاظ في حروفها وحركاتها وأصالتها ولحونها يؤدى إلى إدراك الإنسان أن هذا أمر لا يجتمع البته في الكلام أحد من الناس ولا تصل إليه البلاغة الإنسانية .

---

(١) إعجاز القرآن للرافعي ص ٢٥٢ .
(٢) السابق ص ٢٥٢ - ٢٥٥ بتصرف .

وإننا إذا اعتبرنا القرآن على تلك الوجوه رأيناه أعلى من البلاغة التي وضعت لها تلك الفنون ، لأن هذه الفنون من بيان اللسان الذى لا يرتفع من طبقة اللغة ولا يخرج عن وجوه العادة في تصريفها .

« ثم تحدث الرافعي عن طريقة القرآن النفسية في البلاغة ، ورأى ان القرآن وإن لم يخرج عن أعلى طبقات اللغة ، غير انه أتى بذلك من أعماق النفس لا من وراء اللسان ، فجعل من نظمه وأسلوبه طريقة نفسية في الطريقة اللسانية ودليل ذلك أننا نقرأ الآية على العربي أو من هو في حكم العربي لغة وبلاغة فتعمل في نفسه عملها وتؤثر فيه تأثيرها .

وهذا التأثير يدل على الطريقة النفسية في بلاغة القرآن الكريم ، ولا كذلك التعبير الإنساني فألفاظ التعبير الإنساني تقصر بحقيقته النفسية أو تضعف هذه الحقيقة ، وقلما تصيب لأحد من بلغاء الناس كلاما قد اكتملت ألفاظه من هذه الوجوه كلها .

ولا يمكن أن يتجه للباحث طريق الإعجاز المطلق إلا إذا تدبر آيات القرآن الكريم وقلب ألفاظه ومعانيه ، فإن هذا التدبر يدفع بالإنسان إلى القطع بأنه غير إنساني وأنه ليس من صنع البشر .

فإعجاز القرآن في قوة تركيبه بحيث لا يقرن إليه قوى إنسانية إلا خرج عن طوقها (١) .

---

(١) إعجاز القرآن للرافعي ص ٣٦٣ - ٣٦٤ بتصرف .

٤ - إحكام السياسة المنطقية على طريقة البلاغة لا على طريقة المنطق .

* الفرق بين طريقة البلاغة وطريقة المنطق .
* وحى السياسة المنطقية فى لغة كل أمة أبلغ البلاغة غير أنها فى القرآن مما يعجز الطوق - القدرة الإنسانية - ولا تحتمله قوة النبوغ الإنسانية .

٤ - إحكام السياسة المنطقية على طريقة البلاغة لا على طريقة المنطق :

يرى الرافعي أن من وجوه إعجاز القرآن الكريم إحكام السياسة المنطقية على طريقة البلاغة لا طريقة المنطق ، فإن الطريقة المنطقية وحدها يراد بها إلزام المخاطب ليتحقق المعنى الذى قام به الخطاب إلزاما بالعقل لا بالشعور .

بيد ان طريقة البلاغة إنما يراد بها تحقيق المعنى واخذ الوجوه والمذاهب عن النفس من اجزائه التى يتالف منها بعد ان استوفى على جهتها فى الكلام استيفاء يقابل ما يمكن ان تشعر به النفس من هذه الأجزاء حتى لا تعرض عنها .

الطريقة الأولى إذن للعقل دون الشعور ، اما الطريقة الثانية فإنها تعنى بالمعنى والأسلوب ، فهى للعقل والشعور (خطاب للنفس والعقل) وعلى هذا جرى اسلوب القرآن الكريم .

وساق الرافعي مثلا لذلك بالشاعر الذى يتكلف المعنى ويكد فيه ثم لا يعطيه كل هذا طائلا حتى إذا جاءه عفوا بلا تكلف وهو لم يعاوده ولا قصد إليه وإنما ألهمه فى تلك الحال إلهاما فعاد ما لم يكن ممكنا لكل سبب ممكنا بغير سبب .

والنمل يصنع ما يصنع من جمعه الغذاء ومن بنائه بيته بالإلهام وليس بالعقل ويأتى النحل ما يأتيه من دقائق الهندسة وغير الهندسة أيضا بالإلهام .

والإنسان اخذ عن هذه الكائنات الحية واهتدى بهديها واتجه بعقله فيما وجهه إليه . والإلهام طبقة فوق العقل ولهذا كان فوق الإرادة أيضا .

وعلى هذا الوجه الذى بسطناه من أمر الإلهام يكون وحى السياسة المنطقية التى أشرنا إليها وهى فى لغة كل أمة أبلغ البلاغة غير أنها فى القرآن الكريم مما يعجز الطوق - القدرة الإنسانية ولا تحتمله قوة النبوغ الإنسانى - فقد أحكمت فى آياته إحكاما أظهرها مخلوقة خلقا إلهيا . وعلى تأويل من هذه السياسة المنطقية تحمل كلمة الوليد بن المغيرة المخزومى فى خبره المشهود (1) .

(1) إعجاز القرآن للرافعى ص ٢٦٥ وما بعدها بتصرف .

٥ - الإعجـــاز اللغـــوى

* اللغة التى نزل بها القرآن .
* كان من إعجاز القرآن أن يأتيهم بأفصح ما تنتهى إليه لغات العرب جميعا ، وإنما سبيل ذلك من لغة قريش .
* من إعجاز القرآن اللغوى نزوله على سبعة أحرف .
* حدد الرافعى وجوه الإعجاز اللغوى فى القرآن على النحو الآتى :
- تصفية اللغة العربية من أكدارها .
- كما أن القرآن الكريم قد جمع لهجات العرب كلها على لهجة قريش .
- إقامة أدائها على الوجه الأكمل .
- الجنسية العربية .

٥ - الإعجــاز اللغــوى

نزل القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم بأفصح ما تسمــو إليه لغة العرب فى خصائصها العجيبة وما تقوم به ، مما هو السبب فى جزالتها ودقة أوضاعها وأحكام نظمها واجتماعها من ذلك على تأليف صوتى يكاد يكون موسيقيا محضا ، فى التركيب ، والتناسب بين أجراس الحروف والملاءمة بين طبيعة المعنى وطبيعة الصوت الذى يؤديه .

فكان مما لابد منه بالضرورة أن يكون القرآن أملك بهذه الصفات كلها وأن يكون ذلك التأليف أظهر الوجوه التى نزل عليها ، ثم أن تتعدد فيه مناحى هذا التأليف تعددا يكافىء الفروع اللسانية التى سبقت بها فطرة اللغة فى العرب ، حتى يستطيع كل عربى أن يوقع بأحرفه وكلماته على لحنه الفطرى ولهجة قومه ، توقيعا يطلق من نفسه الأصوات الموسيقية التى يشبع بها الطرب فى هذه النفس بما يسمونه فيلغة العرب بيانا وفصاحة ، وهو فى لغة الحقيقة الموسيقى اللغوية .

وإذا تم هذا النظم للقرآن مع بقاء الإعجاز الذى تحدى به ، ومع اليأس من معارضته على ما يكون فى نظمه من تقلب الصور اللفظية فى بعض الأحرف والكلمات بحسب ما يلائم تلك الأحوال فى مناطق العرب ، فقد تم له التمام كله ، وصار إعجازه إعجازا للفطرة اللغوية فى نفسها حيث كانت وكيف ظهرت ، ومهما يكن من أمرها ، ومتى كان المعجز فطريا فقد ثبت بطبيعته وأن لج فيه الناس جميعا لأنه شىء فى تلك الفطرة يفهم منه صريحا ثم لا تنكر هى موضعه منه وموقعه ، وإن كابرت فيه الألفاظ وبالغت فيه الأهواء فى جحده والانتفاء منه مراء ومغالبة (١) .

---

(١) إعجاز القرآن للرافعى ص ٤٦ - ٤٧ .

ثم تحدث عن الحكمة فى نزول القرآن بلغة قريش حيث يقول ، "وكان طبيعيا ان يكون القرآن بلغة قريش ، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قريشى ، ثم ليكون هذا الكلام زعيم اللغات كلها كما استمارت قريش من العرب بجوار البيت ، وسقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام ، وغيرها من خصائصهم وقد الف العرب امرهم ذلك واحتملوا عليه وافردوهم به ، فلأن يألفوا مثله فى كلام الله أولى (١) .

ثم يوضح الحكمة فى ذلك - فى نزول القرآن بلغة قريش - فيقول " وهذه حكمة بالغة فى سياسة أولئك الجفاة وتآلفهم وضم نشرهم ، فإن هذا القرآن لو لم يكن بلسان قريش ما اجتمع له العرب البتة ولو كانت بلاغته مما يميت ويحى ثو كانوا لا يعدون فى اعتبارهم إياه أنه ضرب من تلك الضروب التى كانت لهم نت خوارق العادات السحر والكهانة ، وهو الذى افترته قريش ليصرفوا به وجوه العرب ويميلوا رؤوسهم عن الإصغاء إلى النبى ، فقالوا ، ساحر ، وكاهن ، وشاعر ، ومجنون ، وتقول من امثال ذلك يبتغون به أن يحدثوا فى قلوبهم الناس لهذا الأمر خفة الشان ، وأن يهونوا عليهم منه بما هونته العادة ، وهم كانوا اعلم بعادات القوم وما يبلغ بهم ، حين قعدوا يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا .

وها هنا أصل آخر وهو أن القرآن لو نزل بغير ما ألفه النبى صلى الله عليه وسلم من اللغة القرشية وما اتصل بها ، كان ذلك مغمزا عليه ، إذ لا تستقيم لهم المقابلة حينئذ بين القرآن وأساليبه ، وبين ما يأثرونه من كلام النبى صلى الله عليه وسلم فيهون ذلك على قريش ، ثم على العرب ، فيجدون

---

(١) إعجاز القرآن للرافعى ص ٦٢

لكل قبيلة مذهبا من القول فيه فتنشق الكلمة ثم يصير الأمر من العصبية والمشاحنة والبغضاء إلى حال لا يلتئم عليه أبدا (١) .

وقد كان من إعجاز القرآن "أن يأتيهم بأفصح ما تنتهى إليه لغات العرب جميعا ، وإنما سبيل ذلك من لغة قريش ، وهذه اللغات وإن اختلفت فى اللحن والاستعمال إلا أنها تتفق فى المعنى الذى من أجله صار العرب جميعا يخشعون للفصاحة من أى قبيل جاءتهم ، وهذا المعنى هو مناسبة التركيب فى أحرف الكلمة الواحدة ثم ملاءمتها للكلمة التى بإزائها ، ثم اتساق الكلام كله على هذا الوجه حتى يكون كالنغم الذى يصب فى الأذن صبا فيجرى أضعفه فى النسق مجرى أقواه ، لأن جملته مفرغة على تناسب واحد (٢) .

ثم يوضح الرافعى لنا أن القرآن الكريم قد استوفى أحسن ما فى تلك اللغات من ذلك المعنى وبان منها بهذه المناسبة العجيبة التى أظهرته على تنوعه فى الأوضاع التركيبية مظهر النوع الواحد وهى مناسبة معجزة فى نفسها ، لأن التأليف بين المواد المختلفة على وجه متناسب ممكن ، ولكن التأليف بينها على وجه يجمعها ويجمع الأذواق المختلفة عليها كما اتفق القرآن ، أمر لا يقول بإمكانه من يعرف معنى الإمكان ، والمنفصل ذلك فى موضع هو أملك به متى انتهينا إلى القول فى حقيقة الإعجاز (٣) .

---

(١) إعجاز القرآن للرافعى ص ٦٣ .

(٢) إعجاز القرآن للرافعى ص ٦٣ .

(٣) إعجاز القرآن للرافعى ص ٦٤ .

ويوضح الرافعى اللغات التى نزل بها القرآن فيقول : "أما اللغات التى نزل بها القرآن غير لغة قريش ، فهى لغة بنى سعد بن بكر الذين كان النبى صلى الله عليه وسلم مستوضعا فيهم ، وهى إحدى لغات العجز من هوازن ، ثم سائر هذه اللغات وهى : جشم بن بكر ، ونصر بن معاويه وثقيف وتلك هى افصح لغات العرب جملة ، ثم خزاعة ، وهذيل وكنانة ، وأسد وضبة ، وكانوا على قرب من مكة يكثرون التردد إليها ومن بعدهم قيس وألفافها التى فى وسط الجزيرة " (١) .

ونقل عن الواسطى فى كتابه الذى وضعه فى القراءات العشر - أن فى القرآن من أربعين لغة عربية وهى : قريش ، وهذيل ، وكنانه ، وخثعم ، والخزوع ، وأشعر ، وغير ، وقيس عيلان ، وجرهم ، واليمن ، وأزد شنوءة ، وغيم ، وكندة ، وحمير ، ومدين ولخم ، وسعد العشيرة ، وحضرموت ، وسدوس ، والعمالقه ، وآغار وعشان ، ومذحج ،وخزاعة ، وغطفان ، وسبأ ، وغسان ، وبنو حنيفة ، وثعلب ، وطئ ، وعامر بن صعصعة ، وأوس ومزينة ، و ثقيف وجذم ، وبلى ، وغورة ، وهوزان ، والنمر ، واليمامة .

ولا سبيل إلى تحقيق ذلك ، لدروس هذه اللغات وتدافعها وتقطع أسباب المقارنة بينها وبين لغة قريش التى مضوا على استعمالها بعد القرآن وأطبقوا عليها ، والعلماء إنما يذكرون من أكثر من هذه اللغات فى القرآن الكلمة والكلمتين إلى الكلمات القليلة ، وانظر أين يقع مبلغ ذلك من لغة بجملتها ؟ .

ثم يوضح الرافعى ان لغة القرآن قد اختلفت على وجه يستطيع العرب ان يقرءوه بلحونهم وإن اختلفت وقتا قضت ، ثم بقى بعد ذلك على فصاحته وخلوصه .

---

(١) إعجاز القرآن للرافعى ص ٦٤ .

لأن هذه الفصاحة هي في الوضع التركيبي كما أوما إليه آنفا ، وتلك سياسة لغوية استدرج بها العرب إلى الإجماع على منطق واحد ليكونوا جماعة واحدة ، كما وقع ذلك من بعد ، فجرت لغة القرآن على أحرف مختلفات في منطق الكلام ، كتحقيق الهمز وتخفيفه ، والمد والقصر ، والفتح والإمالة وما بينهما ، والإظهار والإدغام ، وضم الهاء وكسرها من "عليهم وإليهم" وإلحاق الواو فيهما وفي لفظتي "منهمو وعنهمو" وإلحاق الياء في "إليه وعليه وفيه" ونحو ذلك فكان أهل كل لحن يقرءونه بلحنهم .

وربما استعمل القرآن في الكلمة الواحدة على منطق أهل اللغات المختلفة فجاء بها على وجهين لمناسبة في نظمه ، "كبراء وبريء" فإن أهل الحجاز يقولون : أنا منك براء ، لا يعدونها ، وتميم وسائر العرب يقولون : أنا منك بريء ، واللغتان في القرآن ، وكذلك قوله : "فاسر بأهلك" وقوله "والليل إذا يسر" فإن اللغة الأولى لغة قريش يقولون : أسريت ، وغيرهم من العرب يقولون : سريت (١) .

ويمضي الرافعي في مسيرته موضحا أن من إعجاز القرآن اللغوي نزوله على سبعة أحرف ويروى عن أهل الأثر حديثا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو قوله : "أنزل القرآن على سبعة أحرف ، لكل منها ظهر وبطن ، ولكل حرف حد ، ولكل حد مطلع" (٢) ثم اختلفوا في تأويله وفي تفسير هذه الأحرف

---

(١) إعجاز القرآن للرافعي ص ٦٥ .

(٢) أخرجه السيوطي في الجامع الصغير رقم ٢٧٢٧ وإسناده ضعيف لانقطاعه بجهالة رواية عمن ذكره عن أبي الأحوص . وفي رواية أخرى في إسنادها إبراهيم الهجري - وآية - عن أبي الأحوص ، وأبو الأحوص هو الجشمي ، واسمه عوف بن مالك بن نضلة وهو تابعي ثقة معروف . وأخرجه ابن حبان في صحيحه رقم ٧٤" والهيثمي في مجمع الزوائد ج ٧/١٥٢ - ١٥٣ وينظر تفسير الطبري ج ١/٢٢ .

ولكن الأكثرين على أنها سبع لغات من لغات قريش والفافها من ظواهر مكة إلى قيس - وقد سميناها آنفا - وذلك قول لا تخرج عليه إلا بعض الفاظ الحديث ويبقى سائرها غير متجه .

وقال بعض العلماء : إني تدبرت الوجوه التي تختلف بها لغات العرب فوجدتها على سبعة أنحاء لا تزيد ولا تنقص وبجميع ذلك نزل القرآن :
الوجه الأول : إبدال لفظ بلفظ : "كالحوت بالسمك والعكس ، وكالعهن المنفوش ، قرأها ابن مسعود : كالصوف المنفوش .
والثاني : إبدال حرف بحرف كالتابوت ، والتابوه .
والثالث : تقديم وتأخير ، إما في الكلمة : نحو سلب زيد ثوبه وسلب ثوب زيد . وإما في الحرف : نحو اقلم ييأس واقلم يياس .
والرابع : زيادة حرف او نقصانه نحو : "ماليه وسلطانيه ، فلاتك في مرية" .
والخامس : اختلاف حركات البناء نحو "فلا تحسبن" - بفتح السين وكسرها .
والسادس : اختلاف نحو "ماهذا بشرا" وقرأ ابن مسعود بالرفع .
والسابع : التفخيم والإمالة ، وهذا اختلاف في اللحن والتزيين إلا في نفس اللغة ، والتفخيم أعلى وأشهر عند فصحاء العرب .

فهذه الوجوه السبعة التي بها اختلفت لغات العرب قد انزل الله القرآن باختلافها متفرقا فيه ليعلم بذلك ان من زل عن ظاهر التلاوة بمثله أو من تعذر عليه ترك عادته اللغوية "فخرج إلى نحو مما قد نزل به فليس بملوم ولا بمعاقب عليه" ، وكل هذا فيما إذا لم يختلف في المعاني .

ثم قال الرافعي معلقا على هذا الرأي " وهو قول حسن يحمل به الحديث على معنى القراءات التي هي في الأصل فروق

لغوية ، وإن كان بعض الأحرف قد قرئ بسبعة أوجه ، وبعشرون نحو "ملك يوم الدين" و "عبد الطاغوت" .

ويرى الرافعي ان المراد بالأحرف اللغات يقول "والذى عندنا في معنى الحديث ، أن المراد بالأحرف اللغات التى تختلف بها لهجات العرب حتى يوسع على كل قوم أن يقرءوه بلحنهم وما كان العرب يفهمون من معنى الحرف فى الكلام إلا اللغة (١) .

وإنما جعلها سبعة رمزا إلى ما ألفوه من معنى الكمال فى هذا العدد وخاصة فيما يتعلق بالإلهيات ، كالسموات السبع والأرضين السبع ،والسبعة الأيام التى برئت فيها الخليقة ، وأبواب الجنة والجحيم ، ونحوها ، فهذه حدود تحتوى ما وراءها بالغا ما بلغ وهذا الرمز من ألطف المعانى وأدقها ، إذ يجعل القرآن فى لغته وتركيبه بأنه حدود وأبواب الكلام العرب كله ، على أنه مع ذلك لا يبلغ منه شيء فى المعارضة والخلاف ، وإن تماز العرب فى ذلك إلى الغاية ، إذ هو لغات تنزل من أهلها منزلة السموات ممن ينظرونها ، والأرضين ممن يضربون فيها ، وهلم إلى آخر هذا الباب فذلك قولهم بأفواههم وهذا قول الله الذى يكابرون فيه ويطمعون أن يسامنوه بأقوالهم ، وما لهم منه إلا أن يهتدوا به وينتفعون بما فيه ، كما ينتفعون بالسماء والأرض دون أن يكون لهم من أمرهما شيء .

ثم أشار أفصح العرب صلى الله عليه وسلم بظهر كل حرف وبطنه وحده ومطلع كل حد إلى حقيقة هذا الإعجاز ، فإن ظاهر القرآن على أى لغة قرئ بها من لغات العرب إنما ظاهر تلك اللغة بينها ، ولكن باطنه صورة السماء فى الماء ، ومسميات إلهية لا تنال وإن نيلت السماء .

---

(١) إعجاز القرآن للرافعى ص ٦٩ - ٧٠ .

ثم إن لكل لغة فى امتزاجها بالقرآن حدا يقف عنده أهلها ، وهو الحد الذى تبتدئ منه الجنسية اللغوية ، ولكل حد من هذه الحدود مطلع يصدر منه إلى مرتقى هذه الجنسية التى كان القرآن أخص مقوماتها ، وذلك فى جملته إنما هو الإعجاز كله ، والهدى كله والكمال كله (١) .

وجوه الإعجاز اللغوى فى القرآن :

يحدد لنا الرافعى وجوه الإعجاز اللغوى فى القرآن وذلك عند حديثه عن تأثير القرآن فى اللغة على النحو الآتى :

أ) تصفية اللغة العربية من أكدارها .

ب) جمع العرب على لغة واحدة .

ج) إقامة أدائها على الوجه الذى نطقوا به .

د) الجنسية العربية .

وفيما يلى بيان تلك الوجوه :

أ) تصفية اللغة العربية من أكدارها :

نزل القرآن الكريم بهذه اللغة على نمط يعجز قليله وكثيره معا ، فكان أشبه بالنور فى جملة نسقه ، إذ النور جملة واحدة وإنما يتجزأ باعتبار لا يخرجه عن طبيعته ، وهو فى كل جزء من أجزائه ، وفى أجزائه جملة لا يعارض بشىء إلا إذا خلقت سماء غير سماء وبدلت الأرض غير الأرض .

وإنما كان ذلك لأنه صفى اللغة من أكدارها ، وأجراها فى ظاهرها على بواطن أسرارها ، فجاء بها فى ماء الجمال أملأ من السحاب ، وفى طراوة الخلق أجمل من الشباب .

ثم هو بما تناول بها من المعانى الدقيقة التى أبرزها فى جلال الإعجاز وصورها بالحقيقة وأنطقها بالمجاز ، وما ركبها

---

(١) إعجاز القرآن للرافعى ص ٦٩ - ٧٠ .

به من المطاوعة فى تقليب الأساليب وتحول التراكيب إلى التراكيب ، وقد أظهرها مظهرا لا يقضى العجب منه لأنه جلاها على التاريخ كله لا على جيل العرب بخاصة ، ولهذا بهتوا لها حتى لم يتبينوا أكانوا يسمعون بها صوت الحاضر أم صوت المستقبل أم صوت الخلود ، لأنها من لغتهم التى يعرفونها ، ولكن فى جزالة لم يمضغ لها شبح ولا قيصوم (١) ورقة غير ما انتهى إليهم من أمر الحاضرة (٢) .

مما سبق يتبين لنا أن القرآن الكريم كان له أعظم الأثر فى اللغة العربية حيث نقاها من شي الألفاظ ، وأمدها بألفاظ جديدة صالحة لكل زمان ومكان ، الأمر الذى حار فيه العرب لا يعرفون إن كانوا يتحدثون عن الماضى أو الحاضر أو المستقبل .

كما أن القرآن الكريم قد جمل اللغة العربية بالحقيقة والمجاز ، وهو فى كل ذلك يخاطبهم بلسان عربى مبين ، فيعجزون على الإتيان بمثله ، وبذلك حفظ للغة البقاء والخلود على مر العصور .

وهذا معنى ليس أظهر منه فى إعجاز القرآن فإن اللغة لا تشب عن أطوار أهلها متى كانت من غرائزهم ، وإنما تكون على مقدارهم ضعفا وقوة ، لأنها صورتهم المتكلمة وهم صورتها المفكرة ، فهى ألفاظ معانيهم وهم فى الحقيقة معانى ألفاظها ولذلك لا تزيد عليهم ولا ينقصون منها مادام رسمهم لم يتغير ، ومادامت عاداتهم لم تنتقل ، فإن سنح لامرئ من أهل النظر أن يستدل فى لغة من اللغات على آثار أمتها بنوع من القيافة المعنوية ، كما يستدل صاحب القيافة النظريـة من الأثر فى

(١) فلان يمضغ الشيح والقيصوم ، إذا كان عربيا خالص البداوة ، وهما نبتان من نبات البادية .

(٢) إعجاز القرآن للرافعى ص ٧٥ .

الطريق على مذهب صاحبه لا يخطئه ، وعلى بعض صفاته لايتعداها فلذلك ممكن لا تهن فيه القوة ولا يبلغ به الإعياء متى هو تقدم فيه بالذهن الثاقب ، وتعاطاه بالقريحة النافذة ، لأنه يستظهر من الكفة الصفات على الموصوف ، ويجعل المعروف قياسا لغير معروف . . .

وأنت إذا صنعت يدك بهذا الفن من القيافة اللغوية ، وحاولت أن تستخرج من لغة القرآن ما يصف لك العرب على اخلاقهم وطباعهم ومبلغهم من العلم لأنك تحاول محالا ، وتكابر فيما يأبى عليك ، وما ليس فى الحيلة إليه غير المكابرة حتى أن الذى لا يعتقد مستبعدا أن هذا القرآن من عند الله إذا هو نظر فيه وأثبت حقيقته وقوى على تمييزها ، وكان ممن ينزلون على كلم النظر والمعرفة فإنه لا يجد مناصا من رد التاريخ والتكذيب له ، ثم الإقرار بأن هذا القرآن إنما هو اثر من لغة قوم جاوزوا فى الحضارة حد اهلها من سائر الأجيال وبلغوا من أحوال المدنية ارقى هذه الأحوال ، وكانوا من العلوم فى مقام معلوم ، لأنه هذا الماء الصافى الذى يترقرق فى عبارته ، وهذا النظم الجيد الوثيق وما اشتمل عليه من بديع الأوصاف ، وما فيه من روائع الحكمة ، ثم ما احتوى عليه من إشارات السماء إلى الأرض ، وضراعة الأرض للسماء إلى ما حله من معضلات الاجتماع وكشفه من وجوه السياستين النفسية والقومية لا يكون البتة فى لغة أمة قد اناخت بها اخلاق البداوة فى ساقة الأمم حتى عبدت الأصنام ، ولم تعرف من الشرائع غير شريعة الإلهام ، وما ملكها من ملوك الدهر غير سلطان الأوهام (١) .

من هذا ندرك أن القرآن قد ارتقى باللغة شاوا عظيما إلى جد القارئ لآيات القرآن الكريم ولو لم يكن مؤمنا - والفاظه وتراكيبه ومعانيه يستنتج منه أن الأمة العربية قد بلغت من

---

(١) إعجاز القرآن للرافعى ص ٧٥ .

الحضارة مبلغا عظيما ، وانها لم تكن أمة بدوية لقد نقاها من جفاوة البداوة ، رغم انه نزل في أمة بدوية جاهلية ، ثم ضرب لذلك مثلا بآيات من سورة الإسراء يستنتج القارئ لهذه الآيات انها نزلت في أمة تضطرب فتحرك فيها الحضارة وتقوى يقول

"وقضى ربك الا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا إما يبلغن عندك الكبر احدهما او كلاهما فلا تقل لهما اف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما - واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا - ربكم اعلم بما في نفوسكم إن تكونوا صالحين فإنه كان للاوابين غفورا - وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيرا إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين إن الشيطان كان لربه كفورا - وإما تعرضن عنه ابتغاء رحمة من ربك ترجوها فقل لهم قولا ميسورا ، ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا ان ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إنه كان بعباده خبيرا بصيرا ولا تقتلوا اولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم إن قتلهم كان خطأ كبيرا ، ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا فلا يسرف في القتل إنه كان منصورا ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي احسن حتى يبلغ اشده واوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا . واوفوا الكيل إذا كلتم وزنوا بالقسطاس المستقيم ذلك خير واحسن تأويلا ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا ولا تمش في الأرض مرحا إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروها" (١) .

---

(١) الإسراء ٢٣ - ٣٨ .

ب) جمع العرب على لغة واحدة :

يرى الرافعي ان القرآن الكريم قد جمع لهجات العرب كلها على لهجة قريش وهذا دليل الإعجاز لأن كل قبيلة تعتز بلهجتها وتراها انها هي اقرب إلى الفطرة فلما نزل القرآن بلغة قريش اخذ به العرب وتركوا لهجاتهم رغم مابينها وبين لغة قريش من تباين وتفاوت لأنه لو لم يكن هناك قبل القرآن مقياس للكمال اللغوى فلما نزل القرآن الكريم وجدوا فيه الكمال فاتبعه من آمن منهم ومن لم يؤمن انبهر به يقول الرافعي :
"ومن المعلوم بالضرورة ان القرآن قد جمع أولئك العرب على لغة واحدة بما استجمع فيها من محاسن هذه النظرية اللغوية التي جعلت أهل كل لسان ياخذون بها ولا يجدون لهم منها مرغبا ، إذ يرونها كمالا في انفسهم من اصول تلك الفطرة البيانية مما وقفوا على حد الرغبة فيه من مذاهبها دون أن يقفوا على سبيل القدرة عليه .

ومن شان الكمال المطلوب إذا هو اتفق في شيء من الأشياء كهذا الكمال البياني في القرآن أن يجمع عليه طالبيه مهما فرقت بينهم الأسباب البيانية والصفات المتمادية ولولا ذلك ما سهل ان تنقاد الجماعات في أصل تكوينها عند البدء أيضا ويكون عنه هذا الأثر الوراثي في طاعة الأمم لشرائعها ثم لملوكها وامرائها مع ما تسام الأمة لذلك في باب من أبواب الأسرة والحكم والتسلط كما أن من شان النقص إذا تمثل في شيء أن يزيد في تفريق على من يفترقون فيه أو توهموه حتى تتسع بينه وبينهم الغاية .

وقد كان العرب على حال يتوهم فيها كل قبيل منهم إنهم اسلم فطرة في اللغة وأبين مذهب في البيان لأنهم لا يجدون من ذلك إلا أمثلة ترجع إلى الفطرة وتختلف ، باختلافها ولا يجدون المثال الفطرى الكامل الذى تقاس إليه القدرة والعجز

فى ذلك قياس لا يلتاث - لا يلتبس ولا يختلف ولا يخط من صنف حقه أن يزاد فيه ولا يزيد فى صنف حقه أن يحط منه" (١) .

ثم يقول ليس هناك كلام من كلام البشر مهما بلغت فصاحته قد وصل إلى حد الكمال الذى وصل إليه القرآن حتى كلام الرسول صلى الله عليه وسلم الذى هو فى قمة البلاغة فإنه لا يقارن فى درجة كماله بالقرآن وقد وصف الله عز وجل القرآن الكريم بقوله "ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون قرآنا عربيا غير ذى عوج لعلهم يتقون" (٢) .

وينبغى لك أن تطيل النظر فى قوله تعالى "غير ذى عوج" وتقف على مواقع هذا الأصل من الآية وتتأمل لفظ "العوج" فضل تأمل فإنك لا تثير دقائقها البيانية إلا إذا حملتها على ما ذهبنا إليه فتراها تصف القرآن بأنه فطرة هذه الفطرة العربية نفسها وأنها لكمة من الوصف الإلهى ترجع موقعها بالكلام الإنسانى كله" (٣) .

مما سبق ندرك أنه لولا القرآن الكريم وأسراره البيانية ما اجتمع العرب على لغته ولو لم يجتمعوا لتبدلت لغاتهم وذلك معنى من أبين معانى الإعجاز إذ لا تجده اتفق فى لغة من لغات الأرض غير العربية وهو لم يتفق لها إلا بالقرآن الكريم .

---

(١) إعجاز القرآن للرافعى ص ٨٠ .
(٢) الزمر ٢٧ - ٢٨ .
(٣) إعجاز القرآن للرافعى ص ٨٠ بتصريف .

ج) إقامة أدائها على الوجه الذى نطقوا به :

لقد ضمن القرآن الكريم للغة طريقة الأداء كاملة ولولا ذلك لما بقى أحد ينطق أن يجيدها كما أجادها العرب من قبل ، مما يسر للغة العربية البقاء والخلود رغم عوامل الهدم التى اعترتها وعلى الرغم من وجود الألسنة التى تأثرت بالعجمه ، فكان القرآن الكريم هو النور الذى أضاء اللغة العربية طريق أدائها السليم يقول الرافعى "كان من تأثير القرآن فى اللغة إقامة أدائها على الوجه الذى نطقوا به وتيسر ذلك لأهلها فى كل عصر وإن ضعفت الأصول واضطربت الفروع بحيث لولا هذا الكتاب الكريم لما وجد على الأرض أسود ولا أحمر يعرف اليوم ولا قبل اليوم كيف كانت تنطق العرب بألسنتها وكيف تقيم أحرفها وتحقق مخارجها .

وهذا أمر يكون فى ذهاب البيان العربى جملته ودعامته لأن مبناه على أجراس ، واتساقها ومداره على الوجه الذى تؤدى به الألفاظ وأنت قد ترى الضعفاء الذين لا يحكمون منطقهم وما يصنعون بالأساليب المدمجه والفقر الموثقه إذا هم تماطوها فنطقوا بها حتى ليصير معهم أجود الكلام فى جزالتهم وقوة أسرة وصلابة معجمة الفسولة ، والضعف وإلى البرد والفثاثة كانما يموت فى ألسنتهم صوتا لا رحمة فيه ... لا جرم أن اللغة التى يذهب منها ذلك لا ينطبق بها إلا على الحكاية السقيمة ولا جرم أن بعض السقم يدفع إلى بعضه وأن جملة ذلك تفضى إلى الموت .

فهذه معان سامية غريبة انفردت بها اللغة العربية ولولا القرآن ما كانت فيها وما ينبغى لها بكلام غيرها ، إذ ليس فى غيره ما يبلغ أن يكون حدا للكمال اللغوى فى الفطرة فيتعلق بمثل أثره فى العرب وأحوالهم وتاريخهم أو يقع ذلك على مقدار مقسوم أو يكون له فيه حق معلوم (1) وصدق الله

---

(1) إعجاز القرآن للرافعى ص ٨١ .

العظيم إذ يقول "قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا" (١) .

د) الجنسية العربية :

كان لتهذيب القرآن لألفاظ اللغة بأسلوبه المحكم ومعانيه اثر بالغ فى تجميع العرب حوله سياسيا - كما جمعهم من قبل على اللغة - ولولا القرآن لزاد العرب بعدا وتفرقا لتعصب كل قبيلة للهجتها وهى معتقدة انها اقرب إلى الكمال فيزداد الناقص نقصا ويبعد الكامل عن غايته وعندما جاء القرآن الكريم ألف بين هذه اللغات المتباعدة وقرب بين القلوب المختلفة وكون منهم أمة تجتمع على اللسان والبيان . فمن اثر القرآن الكريم تجميع الأمة العربية أنه [illegible] لغتها فى كل مكان حلوا به ، واقام دولتهم فى كل دولة انتشر فيها الإسلام (٢) .

---

(١) الإسراء / ٨٨ .

(٢) إعجاز القرآن للرافعى ص ٨٢ - ٨٣ بتصرف .

٦ - الإعجـــاز العلمـــى

يتمثل الإعجاز العلمى عند الرافعى فى أمرين :

الأول : أثر القرآن فى العقل الإنسانى .
الثانى : للآيات الكونية .

٦ - الإعجاز العلمى

يتمثل الإعجاز العلمى عند الرافعى فى أمرين الأول ، أثر القرآن فى العقل الإنسانى والثانى ، الآيات الكونية .

أولا : أثر القرآن فى العقل الإنسانى :

تحدث الرافعى عن أثر القرآن الكريم فى العقل الإنسانى ، ورأى أن ذلك معجزة التاريخ الطبيعى خاصة ، ثم هو بآثاره السامية معجزة أصلية فى تاريخ العالم كله على بسيط هذه الأرض من لدن الإسلام إلى ما شاء الله .

وليس يرتاب عاقل ممن يتدبرون تاريخ العلم الحديث أنه لو لم يكن القرآن لكان العالم اليوم غير ما هو فى كل ما يستطيل به وفى تقدمه وانبساط ظل العقل فيه وقيامه على أرجائه وفى غوه واستبحار عمرانه فإنما كان القرآن أصل النهضة الإسلامية ، وهذه كانت على التحقيق هى الوسيلة فى استيفاء علوم الأولين وتهذيبها وتصفيتها وإطلاق العقل فيما شاء أن يرفع منها وهذا كله كان على أساس التاريخ العلمى فى أوربا فما من موضع فى هذا الأساس القائم إلا وأنت واجد من دونه قطعة من الآداب الإسلامية أو العقول الإسلامية ، أو من الحضارة الإسلامية ، فالقرآن من هذا الوجه هو الباب الذى خرج منه العقل الإنسانى المسترحل ، بعد أن قطع الدهر فى طفولة وشباب .

أما من وجه آخر فإن القرآن الدرجة الأبدية التى أجاز عليها العالم فى انتقاله من جهة إلى جهة ، أى من المشرق إلى المغرب وإنا لمستيقنون أن هذه الدرجة هى نفسها التى سيجيز عليها العالم كرة أخرى (١) ولله عاقبة الأمور (٢) .

---

(١) إعجاز القرآن للرافعى ص ١١٤ - ١١٦ بتصرف .

(٢) الحج / ٤١ .

وأما أن هذا القرآن معجزة التاريخ العربى خاصة وأصل النهضة الإسلامية فذلك بين من كل وجوهه ، "فهو قد نزل فى البادية على نبى أمى بقوم أميين لم يكن لهم إلا ألسنتهم وقلوبهم ، وكانت فنون القول التى يذهبون فيها مذاهبهم ويتواردون عليها لا تجاوز ضروبا من الصفات ، وأنواعا من الحكم وطائفة من الأخبار والأنساب ، وقليلا مما يجرى هذا المجرى فلما نزل القرآن بمعانيه الزائدة التى افتن بها فى غير مذاهبهم ، ونزع منها إلى غير فنونهم ولم يقفوا على ما أريد به من ذلك بل حملوه على ظاهره وأخذوا منه حكم زمانهم ، وكان لهم فى بلاغته المعجزة مقنع ، وما روى عربى واحد من أولئك لم جعل الله فى كتابه هذه المعانى المختلفة ، وهذه الفنون المتعددة التى يهيج بعضها النظر ويشحذ بعضها الفكر ، ويمكن بعضها اليقين ، ويبعث بعضها على الاستقصاء ، وهى لم تكن تلتعم على ألسنتهم من قبل . بيد أن الزمان قد كشف من بعدهم عن هذا المعنى ، وجاء به دليلا بينا منه على أن القرآن كتاب الدهر كله وكم للدهر من أدلة على هذه الحقيقة ما تبرح قائمة ، فعلمناه من صنع العلماء أن القرآن نزل بتلك المعانى ليخرج للأمة من كل معنى علما برأسه ، ثم يعمل الزمن عمله فتخرج الأمة من كل علم فروعا ومن كل فرع فنونا إلى ما يستو فى هذا الباب على الوجه الذى انتهت إليه العلوم فى الحضارة الإسلامية ، ولو كان سببا فى هذه النشأة الحديثة من بعد أن استدار الزمان ذهبت الدنيا مستديرة وأنشأ الله القرون والأجيال لتبلغ هذه الحادثة أجلها ويتناهى بها القضاء دون من شىء إلا عند الله خزائنه ولكنه سبحانه يقول "وما ننزله إلا بقدر معلوم" (١) .

ثم يؤكد الرافعى على أن القرآن الكريم كان سبب العلوم الإسلامية ومرجعها كلها : "وإنه ما من علم إلا وقد نظر أهله فى القرآن وأخذوا منه مادة علمهم ومادة الحياة له ، فقد

---

(١) الحجر/ ٢١ .

كانت سطوة الناس فى الأجيال الأولى من العامة شديدة على اهل العلوم النظرية ، أو يبتغوا بها مقصدا من مقاصده او يعرفوا معنى من معانى التفقه فى الدين والنظر فى آثار الله إلى ما يشبه ذلك مما يكون فى نفسه صلة طبيعية بين اهل العقول والبحث واهل القلوب والتسليم .

ومايزال اثر ذلك ظاهرا فى فواتح الكتب العلمية لذلك العهد على اختلافها فما تستفتح من كتاب إلا اصبت فى مقدمته غرضا من تلك الأغراض التى اشرنا إليها او ما يصلح ان يكون غرضا منها ، ثم هو امر ليس اول ذاى تحقيقه من كتب التفسير ، فإنه لا يعرف فى التاريخ العالم كله - من لدن ارخ الناس كتاب بلغت عليه الشروح والتفاسير والأقوال والمصنفات المختلفة ما بلغ ذلك على القرآن الكريم ولا يشابهه ولا قريبا منه" (١) .

وعلى هذا فإن القرآن الكريم فى راى الرافعى يعتبر معجزة من معجزات التاريخ العلمى فى الأرض لم يتفق له فى ذلك شبيه من اول الدنيا إلى اليوم .

ثانيا : الآيات الكونية :

ولقد استخرج بعض علمائنا من القرآن ما يشير إلى مستحدثات الاختراع وما يحقق بعض غوامض العلوم الطبيعية - وبسطوا فى كل ذلك بسطا ليس من غرضنا نستقصى فيه على أن هذا ومثله إنما يكون فيه إشارة .

ثم يقول "ولعل بهذه العلوم الحديثة لو تدبر القرآن واحكم النظر فيه وكان بحيث لا نفوذه اداه الفهم ولا يلتوى عليه أمر من أمره - لاستخرج منه إشارات كثيرة تومئ إلى

---

(١) إعجاز القرآن للرافعى ص ١٢٣ - ١٢٤ .

حقائق العلوم وايه لم تبسط من انباعها ، وتدل عليها وان لم تسمها باسمائها ، بل وان فى هذه العلوم الحديثة على اختلافها لعونا على تفسير بعض معانى القرآن الكريم والكشف عن حقائقه . .

ولا جرم ان هذه العلوم ستدفع بعد تمحيصها واتصال آثارها الصحيحة بالنفوس الإنسانية إلى غاية واحدة ، وهى تحقيق الإسلام ، لأنه الحق الذى لا مرية فيه ، وانه فطرة الناس عليها ، وانه لذلك هو الدين الطبيعى للإنسانية ويكون العقل الإنسانى نبى ، فى الأرض ، لأن الذى جاء بالقرآن كان آخر الأنبياء من الناس ، إذ جاء بهذا الدين الكامل ولا حاجة بالكمال الإنسانى لغير العقول فيه نبيه إليه بعضها "ومن لا يجب داعى الله فليس بمعجز فى الأرض " (١) .

وقد اشار القرآن إلى نشأة هذه العلوم وإلى تمحيصها ونمايتها على ما وصفناه آنفا ، وذلك قوله تعالى "سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى انفسهم حتى يتبين لهم انه الحق ، أو لم يكف بربك انه على كل شيء شهيد" (٢) .

ولو جمعت انواع العلوم الإنسانية كلها ما خرجت فى معانيها من قوله تعالى ، "فى آفاق" .
وفى إنفسهم ، هذه آفاق ، وهذه آفاق آخر ، فإن لم يكن هذا التعبير من الإعجاز الظاهر بداهة فليس يصح فى الافهام شيء (٣) .

ثم إن فى ذكر الآيات الكونية والعلمية فى القرآن دليلا على إعجازه " فهو بذلك يومئ إلى أن الزمن متجه فى سيره إلى الجهة العلمية القائمة على البحث والدليل وان الإنسانية

---

(١) الأحقاف / ٣٢ .   (٢) فصلت / ٥٤ .
(٣) إعجاز القرآن للرافعى ص ١٢٨ - ١٢٩ .

ذاهبة فى أرقى عصورها إلى هذا المذهب ، وان الدين سيكون عقليا ، وان العقل هو آخر انبياء الأرض فوجود ذلك فيه أن يوجد ذلك الزمن بأربعة عشر قرنا ، شهادة ناطقة من الغيب لا يبقى عليها موضع شبهه ، فإن أسفر الصبح وبقى بعض الناس قياما لا يرونه وقد ملأ الدنيا فذلك من عمى النوم فى اعينهم . وآخرون لا يرونهم من نوم العمى فى اعينهم والصبح فوق هؤلاء وهؤلاء (١) .
"فمن أبصر فلنفسه ومن عمى فعليها" (٢) .

ويرى أن القرآن إشارات وآيات بينات فى مسائل ما برحت العلوم الطبيعية تحاول الكشف عن كنهها منذ عصور ، ولا سيما فى علوم التكوين والتخريب - القيامة - الذى دل الآن بنظريات الأخصائيين من علماء الفلك ومباحثهم ومشاهداتهم فى طور التقدم والارتقاء وانك لا تكاد تقلب من المصحف الشريف بضع صفحات حتى تجد انه آية فى أسرار الكائنات واحوال السماء منظومة فى نسقها بمناسبة من ابدع المناسبات . وقد فهموا من علم اليهياء السماوية عظمة الله تعالى بعظمة الأجرام التى كانوا يحسبونها نقطا صغيرة منقرة فى السماء .

خذ لذلك مثلا ، إدراك عظمة الشمس وكوكب الشعرى بالنسبة إلى الأرض ، فإن هذه الأرض إذا نحن فرضناها فرضا بحجم الحمصة ، تكون مساحة الشمس بالنسبة إليها كمساحة مائدة مستديرة طول قطرها ذراع فرنسية ، ومساحة سطح كوكب الشعرى الذى قال الله فيه : "وأنه هو رب الشعرى" (٣) تبلغ مائة ذراع فرنسية بالقياس إلى تلك الحمصة .

إلى ان قال : إن القرآن الكريم آيات بينات عن تكوين

---

(١) إعجاز القرآن للرافعى ص ١٣١ .
(٢) الأنعام / ١٠٤ .   (٣) النجم / ٤٩ .

العالم ، وكيف كان هذا التكوين وعن الأطوار التى ينقل فيها ، وعن خلقه الموجودات وأسباب الحياة وعن آخر كرتنا الأرضية وبما قبتها التى ستصير إليها فى النهاية .

ولقد كانت معانى هذه الآيات الشريفة منظورا إليها فيما مضى من جهة العقائد فحسب ، ولم يكن يستطيع أن تذهب فى تأويلها مذهبا يصدر فيه عن علم ، ولكن هذه الحالة قد تغيرت الآن ، لأن الحكماء الذين نبغوا فى العصرين الآخرين قد أبانوا بمباحثهم العلمية ، وما كشفوه من الغوامض الدقيقة عن قدرة الله بأجلى بيان ، حتى أصبحت نظريات علم التكوين صالحة لتفسير آيات الله سبحانه وتعالى تفسيرا بديعا ، مع أنها هى فى حالتها الراهنة لم تبلغ بعد حد الكمال (١) .

ثم يوضح الرافعى فائدة المخترعات والمستحدثات ، وما أدت إليه من أدلة ونظريات وأنه قد جاءتنا ببرهان جديد على إعجاز القرآن الذى ندين لله عليه ، فقرة بذلك أعين المؤمنين ، وذلك من فضل الله علينا وعلى الناس . وسيرجع الفلكيون موحدين إذا علموا أن الأسرار العلمية التى يحسبونها جديدة ، هى فى القرآن كما ظهرت لهم ، ومثل من ذلك أن العالم الفلكى بونكا ريه قال فى مقدمة كتابه المطبوع فى ١٩١١م وهو يبحث فى دقة نظام هذه الكائنات وما فيها من مظاهر الكمال ، ليس ذلك من الأمور التى يمكن حملها على المصادفة والاتفاق ، وأحسب أن القدارة التى لا أول لها ولا آخر سنت للكائنات هذا النظام فى عهد ما على أن يستمر حكمه إلى الأبد ، فأذعنت الكائنات لإرادتها راضية طائعة .

فأمعن أنت النظر فى هذه الكلمات وسياقها ، ثم اقرأ قوله تعالى : "ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها ، قالتا أتينا طائعين (٢) وتأمل ما فى

---

(١) إعجاز القرآن للرافعى ص ١٣٢ . (٢) فصلت / ١١ .

الآية من معاني ورموز بأتم تصور ما في ذلك من ذوق وجداني لأهل العرفان ، وقل "تبارك الله والمنة الله" (١) . ثم ساق الرافعي تفسير آية من كتاب الله تعالى تشير إلى مراحل نمو الجنين هي قوله عز شأنه "ولقد خلقنا الإنسان من سلالة (٢) من طين ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ، ثم خلقنا النطفة علقة ، فخلقنا العلقة مضغة ، فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ، ثم أنشأناه خلقا آخر ، فتبارك الله أحسن الخالقين" (٣) .

قال جل من قائل "ولقد خلقنا الإنسان إيجادا واختراعا ، لعدم سبق المادة الأصلية "من سلالة" هي الخلاصة الممتازة من الكيفيتان الأصلية بعد امتزاج القوى والصور والتنويه باسمه إما للصورة والرطوبات الحسية أو لأنه السبب الأقوى في تحجر الطين وانقلابه ، وكسر سورة الحرارة ، وإحياء النبات

---

(١) إعجاز القرآن للرافعي ص ٢٣٧ .

(٢) السلالة : الخلاصة ، قالوا : لأنها تسل من الكدر ، وهذا الوزن فعالة بضم الفاء لبنى القلة : كقلامة الظفر ونحوها . وقوله "سلالة من طين" يحتمل معاني كثيرة ، بل أنت لا تجد معنى علميا في خلق الإنسان الأول إلا إذا انطبقت عليه ، وليس يخفى أن مسألة خلق الإنسان الأول من أمهات المسائل الغامضة التي لا سبيل إليها إلا من الظن ، كأنها ليست من علم الإنسانية وكأنها تلتحق ببيان الروح ، هذه لا بيان لها على الأرض ، فجاءت العبارة في الآية الكريمة كأنها (سلالة من علم) .

(٣) في وصف القرار بأنه "مكين" إعجاز يفهمه الأطباء والذين درسوا التشريح فقد ثبت أن الرحم مجهز في تكوينه ، وفي خصائصه بما يمكن أشد التمكين للجرثومة التي يكون منها اللقاح ، ففيه مخابئ لها عجيبة لذلك خلقا ، ثم مواد تفرز حلوقا بها وهذا وحفظ الحياة عليها والدفاع عنها أن - تقتلها المواد الحامضة ولذلك خط كله تجده في كلمة (مكين) .

والحيوان اللذين هما الغذاء الكائنة عنه النطف ، وهذا الماء هو المرتبة الأولى والطور الأول .

وقوله من « سلالة » يشير إلى أن المواليد كلها أصول للإنسان وانه المقصود بالذات الجامع لطابعها ثم جعله نطفة بالانضاج والتخليص الصادر عن القوى الممدة لذلك ، ففي قوله : "ثم جعلناه نطفة" تحقيق لما صار إليه الماء من خلع الصور البعيدة والضمير إما للماء حقيقة أو للإنسان بالمجاز الأولي .

وقوله "في قرار مكين" يعني الرحم (١) وهذا هو الطور الثاني ، ثم قال مشيراً إلى الطور الثالث "ثم خلقنا النطفة علقة" أي صيرناها دما قابلا للتمدد والتخلق بالزوجة والتماسك (٢) .

ولما كان بين هذه المراتب من المهلة والبعد ما سنقرره ، عقبها ب "ثم قال المقتضيه للمهمله - كما بين أدوار كواكبها ، فإن زحل يلي أيام السلالة المائية لبردها ، والمشتري يلي النطفة لرطوبتها ، والمريخ يلي العلقة لحرارتها وهذه الثلاثة هي أصحاب الأدوار الطوال .

ثم شرع في المراتب القريبة التحويل والانقلاب التي يليها الكواكب المتقاربة في الدورة وهي ثلاثة .

---

(١) لم يكن العرب يعرفون من كلمة "العلقة والعلق" إلا إنها الدم الجامد ولكن الكلمة إعجاز كإعجاز (مكين) التي شرحها ، فقد ثبت في آخر ما انتهى إليه تكون الجنين أن الجثومة التي يكون منها اللقاح في ماء الرجل تعلوا رأسها فأرمه كاسنان فتهاجم البويضة في الرحم وتهيجها بسلاحها فتخوفها وتعلق بها ، فإذا هما قد اقترنا ، فهذا هو التحول الأول للنطفة (علقه) وتأمل قوله "فجعلنا" .

احداهما : ما اشار إليه بقوله "فخلقنا العلقة مضغة" اى حولنا الدم جسما صلبا قابلا للتفصيل والتخطيط والتصوير والحفظ وجعل مرتبة المضغة فى الوسط وقبلها ثلاث حالات وبعدها كذلك لأنها الوساطة بين السيالة والجسو الحافظ للصور ، وقابلها بالشمس .

لأنها بين العلوى والسفلى كذلك ، وجعل التى قبلها علويه ، لأن الطور الإنسانى فيها لا حركة له ولا اختيار ، فكأنه هو المتوليه أصاله وايه كان فى الحالات كلها كذلك لكن هو اظهر فانظر إلى دقائق مطاوى هذا الكتاب المعجز وتحويله العلقة إلى المضغة يقع فى دون الأسبوع .

وثانيا : مرتبة النظام المشار إليها بقوله لخلقنا المضغة عظما اى جعلنا تلك الأجسام بالحرارة الإلهية حتى اشتدت وقبلت التوثيق والربط والإحكام والضبط وهذه مربية الزهرة ، وفيها تتخلق الأعضاء المنوية المتشاكلة أيضا ، ويتحول دم الحيض غاريا كما هو شان الزهرة فى احوال النساء .

وقوله "فكسونا العظام لحما" اى حال تحويل الدم غاريا للعظام لا يكون عنه إلا اللحم والشحم وكل ما يزيد وينقص ، وهذا شان عطارد ، يتقدم وتارة يتأخر ويقول وكذا فى اللحم البدن ، وهذه المرتبة التى يكون فيها الإنسان كالنبات ، ثم يطول الأمر حتى يشتد ، ثم يتم إنسانا يفيض الحياة والحركة ينفخ الروح ، فلذلك قال معلما للتعجب وللتربية عند مشاهدة دقيق هذه الصنعة .

"ثم انشاناه خلقا آخر فتبارك الله احسن الخالقين" وهذا هو الطور السابع الواقع فى حيره القمر وفى هذه الآية دقائق :

الأولى : غير فى الأول بخلقنا ، لصدقه على الاختراع ، وفى

الثانى يجعلنا لصدقه على تحويل المادة ، ثم عبر فى الثالثة وما بعدها كالأول ، لأنه أيضا إيجاد لم يسبق .

الثانية ، مطابقة هذه المراتب لأيام الكواكب المذكورة ومقتضياتها للمناسبة الظاهرة وحكمة الربط الواقع بين العوالم .

الثالثة ، قول "فكسوناه" وهى إشارة إلى ان اللحم ليس من اصل الخلقة اللازمة للصورة بل كالنبات المستخدم للزينة والجمال ، وان الاعتماد على الأعضاء والنفس خاصة .

الرابعة ، قوله تعالى "ثم انشاناه" سماه بعد نفخ الروح انشاه لأنه حينئذ قد تحقق بالصورة الجامعة .

الخامسة ، قوله "خلقا" ولم يقل إنسانا أو آدميا ولا بشرا (1) لأن النظر فيه حينئذ لما سيفاض عليه من خلع الأسرار الإلهية ، فقد آن خروجه من السجن ، والباسه المواهب ، فقد يتخلق بالملكيات فيكون خلقا ملكيا قوسيا ، أو بالبهجة فيكون كذلك ، أو بالحجرية إلى غير ذلك فلذلك ابهم الأمر واحاله على اختياره ، وأمر بتنزيهه على هذا الأمر الذى لا يشاركه فيه غيره .

وانت لو عرضت الفاظ هذه الآية على ما انتهى إليه علماء تكوين الأجنة وعلماء التشريح وعلماء الوراثة النفسية ، لرايت فيها دقائق علومهم كأن هذه الألفاظ إنما خرجت من هذه العلوم نفسها ، وكأن كل علم وضع فى الآية كلمته الصادقة ،

---

(1) لو قال إنسانا أو آدميا أو بشرا لوجب أن يكون فى كل مخلوق إنسانية صحيحة أو آدمية من آدم أو بشرية بالمقابلة من الملكية وليس كل مخلوق كذلك فى الناس الأعلى أو الأسفل فتأمل .

فلا تملك بعد هذا أن تجد ختام الآية ما ختمت هي به من هذا التسبيح العظيم "فتبارك الله" (١) .

ويشير الدكتور عبدالعزيز إسماعيل إلى الأغشية التي تحيط بالجنين في قوله تعالى : "يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق في ظلمات ثلاث" (٢) فيقول : في هذه الآية معجزة علمية للقرآن . فقد أخبر أن الجنين له ثلاثة أغشية سماها ظلمات ، وهي التي نطلق عليها : الغشاء المنباري والخوريون ، والغشاء اللفائفي والجدير بالذكر أن هذه الأغشية لا تظهر إلا بالتشريح الدقيق وتظهر كأنها غشاء واحد بالعين المجردة (٣) .

---

(١) إعجاز القرآن للرافعي ص ١٣٥ - ١٣٨ .
(٢) المؤمنون / ١٤ .
(٣) الإسلام والطب الحديث ص ٨١ .

٧ - الإعجاز الأدبى (التشريعى)

* المقصود به - عند الرافعى - آداب القرآن وتشريعاته .
* مقارنة بين رأى الرافعى والخطابى والباقلانى .
* أثر آداب القرآن فى الأمة .
* أثر ضعف الأخلاق القرآنية فى نفوس أهله .
* قوام الإنسانية فى ثلاث - هى جملة ما ترمى إليه آداب القرآن :

- الأولى تعيين النسبة الصحيحة فى المساواة بين الإنسان والإنسان .
- والثانية حياطة هذه النسبة الإنسانية فيما يبتلى به الإنسان من الخير والشر فتنة .
- والثالثة حد هذه النسبة فى الإنسان بالقياس إلى القوة الأزلية حتى يتحقق معنى المساواة فيها .

٧ - الإعجاز الأدبي (التشريعي)

رأى الرافعي أن من وجوه الإعجاز القرآني - الإعجاز الأدبي - بقصد آداب القرآن وتشريعاته - وأن آداب هذا الكتاب الكريم إنما هي آداب الإنسانية المحضة في هذا النوع أنى وجدت ، وحيث تكون ، لأنها آداب الفطرة التي لا تتغير في هذا الخلق على تباين طوائفه من التباين وعلى الضروب المختلفة من أسباب هذا التباين وعليه (١) .

وقد أبان لنا الخطابي هذا الوجه من وجوه الإعجاز القرآني الكريم في قوله : "واعلم أن القرآن إنما صار معجزا ، لأنه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظوم التأليف مضمنا أصح المعاني ، من توحيد له عزت قدرته ، وتنزيه له في صفاته ودعاء إلى طاعته ، وبيان بمنهاج عبادته ، من تحليل وتحريم ، وحظر وإباحة ومن وعظ ، وتقويم وأمر بمعروف ونهي عن منكر ، وإرشاد إلى محاسن الأخلاق ، وزجر عن مساويها ، واضعا كل شيء منها موضعه الذي لا يرى شيء أولى منه ، ولا يرى في صورة العقل أمر أليق منه .. جامعا في كل ذلك بين الحجة والمحتج له ، والدليل والمدلول عليه ، ليكون ذلك أوكد للزوم ما دعا إليه ، وإنباء عن وجوب ما أمر به ونهى عنه .

ومعلوم أن الإتيان بمثل هذه الأمور ، والجمع بين شتاتها حتى تنتظم وتتسق أمر تعجز عنه قوى البشر ، ولا تبلغ قدرهم ، فانقطع الخلق دونه ، وعجزوا عن معارضته بمثله ومناقضته في مشكله (٢) .

وقد أشار الباقلاني إلى ذلك أيضا عند حديثه عن آيات

---

(١) إعجاز القرآن الكريم للخطابي ص ٢٤ - ٢٥ .
(٢) إعجاز القرآن للرافعي ص ٩٣ .

الأحكام التي رأى أنه "لابد فيها من أمر البلاغة ، يعتبر فيها من الألفاظ ما يعتبر في غيرها وقد يمكن فيها وضع موضع أمكن ذلك ، فقد وجد في القرآن في بابه ما ليس عليه مزيد في البلاغة ، وعجيب النظم . ثم في جملة الآيات ما إن لم تراع البديع البليغ في الكلمات الإفراد والألفاظ الاحاد ، فقد تجد ذلك مع تركيب الكلمتين والثلاث ، ويطرد ذلك في الابتداء والخروج والفواصل ، وما يقع بين الفاتحة والخاتمة من الواسطة أو باجتماع ذلك أو في بعض ذلك من ما يخلق الإبداع في افراد الكلمات ، وإن كانت الجملة والمنظم على ما سبق الوصف فيه " (١) .

والذى ينبغى ان نلاحظه ان الخطابى والباقلانى قد جعلا هذا الوجه متصلا بنظم القرآن بيد أن الرافعى قد جعله متصلا باللغة ومبنيا عليها ، فالقرآن كما اعجز العرب بكماله اللغوى ، اعجزهم أيضا بآدابه الإنسانية الرائعة التى لا نظير لها .

ثم وضع لنا الرافعى اثر تلك الآداب القرآنية ، وأن هذا الكتاب الخالد الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه - استطاع ان يؤلف من العرب - وكانوا بشرا لا نظام لهم - اكبر جماعة نفسية عرفها تاريخ الأرض ، إذ وجدت آداب القرآن قلبا اجتماعيا عاما استولى على ما فيها من التصوير والفكر والإدراك والاعتقاد واحالها كلها فكرا واحدا يستمد قوته من الخلق الذى قام به لا من العقل الذى ينشأ عنه (٢) .

وحتى إنه لما وصف النبى صلى الله عليه وسلم بابلغ الصفات واشرفها لم يزد على قوله "وإنك لعلى خلق

---

(١) إعجاز القرآن للباقلانى ص ٢٠٨ - ٢٠٩ بتصرف .

(٢) إعجاز القرآن للرافعى ص ١٠٠ بتصرف

عظيم"(١) .

فكان الأصل الأول فيه لهذه الأخلاق هو "التقوى" وهى فضيلة اراد بها القرآن إحكام ما بين الإنسان والخلق ، وإحكام مابين الإنسان وخالقه وكذلك تدور هذه الكلمة ومشتقاتها فى اكثر آياته القرآنية والاجتماعية ، والمراد بها أن ينفى الإنسان كل ما فيه ضرر لنفسه أو ضرر لغيره ، لتكون حدود المساواة قائمة الاجتماع .... لأن كل ما اصاب الاجتماع من ذلك فيما نما يصيب الدين بديا ، لأن هذه التقوى هى مصدر النية فى المؤمنين بالله ...

وهذا الأصل ـ اصل المساواة هو الذى كشفه القرآن بقوله عز وجل "يا ايها الناس إنا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله اتقاكم" (٢) .

فانظر كيف ابان عن المساواة الطبيعية التى لا يملك بحال من الأحوال ان يفرق فيها الجنس الإنسانى كله ، وهى الخلق من (الذكر والأنثى) ، وكيف وصف الغاية الاجتماعية للناس شعوبا وقبائل بأنها للتعارف لم يزد على هذه اللفظية التى لا تشذ عنها فضيلة من فضائل الاجتماع قاطبة ، ولا تجد رذيلة اجتماعية يمكن أن تدخل فى مدلولها ولن تجدها إلا منصرفة عنها فى الغاية .

ثم تامل كيف اقام هذا الأساس الأدبى العظيم ، فجعل اكرم الناس المتساوين جميعا فى الحالتين الفردية والاجتماعية ، هو اتقاهم ، اى اعظمهم خلقا ، لا أوفرهم مالا ولا احسنهم حالا ، ولا اكثرهم رجالا ، ولا اشبههم فهما ولا اعلمهم علما ، ولا اقواهم قوة ، ولا شىء من ذلك وأشباه ذلك مما لا يتفاضل به الناس على التحقيق إلا فى ادبار الدولة

---

(١) القلم / ٤ (٢) الحجرات / ١٣ .

واضطراب الاجتماع وفساد العمران ويكون مع ذلك كله كأنه دربة لهم أن يتباينوا بعد هذه الفضائل المشوبة بالرذائل معرفة لا شوب فيها (١) .

ثم يتابع الرافعي مسيرته ويوضح لنا أن خير الأمم على الاطلاق في نظر القرآن إنما هي الأمة التي تنبسط في مناحي الاجتماع على هذا الخلق الثابت ، فإن مرجع التقوى في مظاهرها الاجتماعية إلى شيئين : الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وهما المبدأ والغاية لكل قوانين الآداب والاجتماع ، ثم مرجعها في حقيقة نفسها إلى شيء واحد وهو الإيمان بالله ، فالأمة التي تكون لأفرادها فضيلة التقوى ، تكون لها من هذه الفضيلة صفات اجتماعية مختلفة يؤدي مجموعها إلى صفة تاريخية واحدة وهي أنها خير أمة على هذا جاء قول الله تعالى : "كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله" (٢) .

فتأمل كيف قدم وأخر ، فإنك لا تجد هذا النسق إلا ترتيبا لمنازل الفضيلة الاجتماعية الكبرى تجعل الأمة في نفسها خير أمة ، وبالحري لا تجد هذا الترتيب إلا نسقا في وصف الآداب الإسلامية التي جعلت أهلها الأولين حين اتبعوها وأخذوا بها خير أمة في التاريخ بشهادة التاريخ نفسه .

وإنما أركان الفضيلة الاجتماعية الكبرى في ثلاث :

أ) استقلال الإرادة وقوتها وهذا هو الذي يكون عنه " الأمر بالمعروف" لا يكون بدونه البتة .

ب) استقلال الرأي وحريته ، ويكون منه "النهي عن المنكر" ولا يمكن أن يكون بغيره .

---

(١) إعجاز القرآن للرافعي ص ١٠١ . (٢) آل عمران / ١١٠ .

ج) استقلال النفس من أسر العادات والأوهام ، بالنظر في الفكر في مصنوعات الله ولا يكون الإيمان إيمانا على الحقيقة بدونه ، ثم هذا الإيمان هو الذي يسند الركنين المذكورين آنفا ويقيم وزنهما الاجتماعي . فيبعث على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بثقة إلهية لا يعترضها شيء من عوارض الاجتماع التي تعترى الناس من ضعف الطباع الإنسانية ، كالجبن والنفاق ، وإيثار العاجلة ...

ويوضح لنا الرافعي اثر آداب القرآن في الأمة وانها اخرجت جيلا قويا حينما كان القرآن غضا طريا بقوله : "وليس من دليل في التاريخ على أن هذه الأرض شهدت من خلق الله جيلا اجتماعيا كذلك الجيل الأول في صدر الإسلام حين كان القرآن غضا طريا . واتت الفطرة الدينية مواتية ، وكانت النفوس مستجيبة ، على أنه جيل ناقض طباعه ، وخالف عاداته ، وخرج عما ألف ، وخلق على الكبر خلقا جديدا ، ومع ذلك فإن الفلسفة كلها والتجارب جميعا والعلوم قاطبة ، لم تنشئ جيلا من الناس ولا جماعة من الجيل ولا فئة من الجماعة كالذي اخرجته آداب القرآن وأخلاقه من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في علو النفس ، وصفاء الطبع ، ومرونة الجانب ، وبسط الجناح وحاجة اليقين ، وتمكن الإيمان إلى سلامية القلب ، وانفساح الصدر وانطواء الضمير على اظهر ما عسى ان يكون في الإنسان من طهارة الخلق ثم العفة عن مذاهب الفضيلة ، من حسن العصمة ، وشدة الأمانة وإقامة العدل ، والذلة للحق ، وهلم إلى ان تستوفي الباب كله . وهذا على كثرة عديدهم ، وترادف تلك الآداب فيهم وتظاهرها على جميعهم واستقامتهم لها بانفسهم ، وإنما يكون مثل الرجل الواحد منهم في الدهر الطويل ، وفي الجيل بعد الجيل ، وانه على ذلك ليكون في الأرض نادرة الفلك ، بل يجعل هذه الأرض مثال السماء لأنه نفسه مثال الملك .

وماذا تريد من علوم الأخلاق وعبر الاجتماع وفلسفة

التربية وآداب السلوك وما إليها مما يتبقى ذريعة فى كل وجه من إصلاح الإنسانية ، إذا كانت كل هذه إنما تلتمس الناقص أو المعوج أو الفاسد أو الضال ؛ فتتمه وتقيمه وتصلحه وتتنصح إليه على طريق من الجدل والموافقة والبرهان، إن هى انحنت فى قليل لم تفند فى كثير ، وإن اقنعت العقل لم تبلغ من القلب مبلغا ولا تؤخذ إلا على أنها ثقاف ودربة وتمكين ، وما كل الناس محسن أن يقوم على نفسه بنفسه هذا القيام ...

وإنما كان ما علمت لقصور هذه الآداب عن استبطان حقائق الفطرة الإنسانية والكشف عن دخائلها ، واستثارة دقائقها ، وتمثل مذاهبها النفسية على الوجوه التى تذهب إليها هى لا تلك الوجوه التى يمضى فيها النظر والتأمل والحدس والقياس والتنظير ونحوها من وسائل العلماء إلى الاستنباط والاستنتاج إلى القطع والتقرير ، حتى خرجت تلك الآداب من أن تكون آدابا الى أن صارت قضايا متداخلا بعضها فى بعض ، يفضى بعضها الى بعض فصارت كالشىء المختلف الذى لا ينفك يخذل بعضه بعضا لحملها على العقل دون الخلق ، واعتمادها على جملة الفائدة دون الطريقة التى تنتهى إلى الفائدة ، وبذا ضعفت آثارها فى النشئ من دون الطفولة فضلا عن ذوى العنفوان من الاحداث ومن إغفال الرجال إذ لم تمازج أنفسهم ولا داخلت طباعهم المتطلعة التى إنما يكون الشر بها شرا ، فلم تثبت ثبات العادة ولا أغنت غناء الدين ، وبقيت التربية الطبيعية كما هى : للدين والعادة .

ويرى الرافعى ان القرآن يصف جمل الآداب - أى الكليات الأدبية - التى تلائم النظرة فى مختلف أزمانها وأنه "لا يقرر الأخلاق تقريرا وضعيا على أسلوب الكتب والمصنفات فيضعها على أن لها قواعد وضوابط واشباه القواعد والضوابط ، مما هو مثار الاختلاف ومبعث الفرقة فى مذاهب الحكماء ، ومما لا تكون الآداب معه إلا معادة على الناس فى كل عصر بنوع من التنقيح وضرب من التغيير يناسبان اختلاف كل عصر عن الذى

قبله ، بل أن المعجزة في هذه الآداب الكريمة أنها تقرر الأخلاق تقريرا عاما ، ويوردها في أحسن الحديث ويعترض بها وجوه القصص ، ويقلبها مع أغراض الكلام ، ثم لا يكون في ذلك وجه الخلاف بينها وبين الفطرة الإنسانية ، على ما في تلك الآداب من الإطلاق .

وعلى أنه غير ملحوظ فيها دولة بينها أو أمة بأوصافها أو نحو ذلك من ضروب العد والتعيين فليس فيها من روح الزمن إلا روح الزمن كله بحيث لا يتأتى للفيلسوف ولا للمؤرخ إلى أن يردها أحدهما أو كلاهما في جملتها إلى عصر بعينه لا تعدوه ، أو يقصرها على حد تقفها عنده الإنسانية وتتقدم بغيرها مما يقال فيه أنه الأصلح أو الأنفع ، ولو أن الدهر قد فنى ثم نزع من كل أمة شهيد "وعرضت عليهم آداب القرآن فقابلوها بفضائل آدابهم ، واعترضوا بعض ذلك ببعضه ، ثم قيل هاتوا برهانكم عليها ، لأقر الزمن بألسنتهم جميعا أنها الحق ، وأن الحق لله .

من أجل ذلك تجد الخطاب الأدبي مطلقا في القرآن كله كأنه نظام إنساني عام لا يراد به إلا حرية المنفعة للنوع كله ، ثم الموازنة بين مقدار هذه المنفعة وبين مقدار الحرية التي تنال بها ، ليكون كل شيء في نصابه الاجتماعي فإن إطلاق الحرية عبث وإطلاق المنفعة ضرر أو ضرار ، ولو سوغت كل أمة أن تقارن ما تريد بمقدار ما يهيء لها ضعف غيرها في بسط يدها لكان من ذلك فتنة في الأرض وفساد كبير .

وأن كل أمة اضطربت فيها الموازنة بين الحرية والمنفعة ، فإنما يكون ذلك حاضر تاريخها ومبدأ العبودية لغيرها ، وهذا الأصل أرقى ما انتهت إليه علوم الاجتماع (١) .

---

(١) إعجاز القرآن للرافعي ص ١٠٩ ـ ١١٠ .

ورأى الرافعي أن كل ما في آداب القرآن الكريم من الأمر والنهي ، فإنما يراد به ضبط الصلة بين عالم العقل وعالم المادة على وجه بين ولولا ذلك لما كانت هذه الآداب زمنية تحيي روح الزمن كله بل لكانت من غير هذا العالم ، فلا يستقيم لها بشيء ، ثم لا تكون في الناس إلا عبثا وإرهاقا ولا يتهيأ معها صرف ولا عدل (١) .

ورأى الرافعي أن تلك الآداب تحتم على الفرد أن يكون دائما مع الحق ، وأنها انفردت في الصحابة بالأسلوب الذى تناولها فيه "مما يشبه في صفة البيان أن يكون وحيا يوحى إلى كل من يفهمه ويقف عنده متثبتا بحال من الرأى ، وفحص من النظر ، وبإدمان التأمل ، وأخذ النفس بالتردد في أضيق ما بين الحرف والحرف من المسافة المعنى لدقة النظم وإبداع التركيب إلى ما يبهر الفكر ويملأ الصدر عجبا ، وهذا تفسير ما جاء في الأثر من أن :

"من قرأه فقد استدرج النبوة بين جنبيه غير أنه لا يوحى إليه" وذلك - أي ما وصفناه من شبه الوحي - ظاهر التحقيق فيمن تدبر القرآن من أهل الذوق في اللغة والبصر بأسرارها والمعرفة بوجوه الخطاب" (٢)

وبعد ذلك تحدث الرافعي عن أثر ضعف الأخلاق القرآنية في نفوس أهلها بقوله :"لما ضعفت أخلاق القرآن في نفوس أهله لم ينفعهم العقل الذى أفادوه من استفاضة العلوم بينهم — وما فرط المسلمون في آداب هذا القرآن إلا منذ فرطوا في لغته فأصبحوا لايفهمون كلمه ، ولا يدركون حكمه ، ولا ينزعون أخلاقه وشبه وصاروا إلى ما هم عليه من عربية كانت شرا من العجمة الخالصة واللكنة الممزوجة فلا يقرون هذا

---

(١) السابق ص ١١١ .

(٢) إعجاز القرآن للرافعي ص ٩٩ .

الكتاب إلا أحرفا ولا يفطنون إلا أصواتا وتراهم يرعون آذانهم وهم بعد لا يتناولون معانى كلام الله إلا من كلام الناس .. وماذا أنت صانع بأحلم وأبين ما فى البيان ، وأسد ما فى الرأى ، وأبدع ما فى الأدب - إذا جعلت تملأ مسامع الناس وأنت لا تصيب فيهم وجها من وجوه الاستهواء ، ولا تملك إليهم سببا من أسباب التأثير ولا تقع منهم بالحكمة والبيان والرأى والآداب والنصيحة وبما هو الزمام عليها إلا فى فنون جهل الجهلاء ولغط العامة فلا تجد إلا قلوبهم مساغة" بل قلوبهم فى غمرة من هذا ولهم أعمال من دون ذلك فهم لها عاملون" (١) .

لا جرم كانت هذه علة العلل فى أن القرآن الكريم لم يعد له من الأثر فى أنفس أهله ما كان له من قبل ولا بعض ما كان له ، إذ لم يتدبروه بمثل القرائح التى أنزل عليها ، أو بقريب منها فى الذوق والفهم والبصر بمواقع الكلام ولم يجروه من ذلك على حقه ، بل أصبحوا لا يستحقون من الله أن يجعلوا قراءة كتابه ضربا من العبادة اللفظية : "يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون" (٢) (٣) .

ذلك وجه الإعجاز الأدبى فى القرآن ، وهو متصل باللغة اتصالا سببيا ، ثم هو من وراء الجنسية العربية ، لأنه تحقيق تلك العصبية الروحية .

ورأى الرافعى أن قوام الإنسانية فى ثلاث - هى جملة ما ترمى إليه آداب القرآن :

الأولى : تعيين النسبة الصحيحة فى المساواة بين الإنسان

---

(١) المؤمنون / ٦٣ .   (٢) البقرة / ٩ .

(٣) إعجاز القرآن للرافعى ص ١٠٦ .

والإنسان حتى لا تكون القوة والعنف والسيادة والعبد ونحوها من عوارض الاجتماع فاصلة فصلا طبيعيا بين فرد وفرد ، وبين أمة وأخرى ، فتقسم هذا الجنس أنواعا متباينة بطبيعتها .

الثانية : حياطة هذه النسبة الإنسانية فيما يبتلى به الإنسان من الخير والشر فتنة ، حتى لا يخيف القوى ولا يستيئس الضعيف ، ولتتصرف رغائب الأمم على تباينها في السياسة إلى جهة واحدة من هذه النسبة المعنية ..

الثالثة : حد هذه النسبة في الإنسان والقياس إلى القوة الأزلية حتى يتحقق معنى المساواة فيها ..

وأنت إذا تدبرت آداب القرآن حيث أصبتها منه ، ورأيتها قائمة على تلك الثلاث جميعا ، فإن خروج هذه الآداب كلها في ثلاث كلمات من قوله تعالى : « وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذى اختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم يؤمنون »(1) .

تأمل هذا القيد في جعله الهدى والرحمة "لقوم يؤمنون" فإذا انتفى الإيمان انتفت معه كل آداب الانسانية فإنما هي ترجع إلى ثلاث كلمات تقابل تلك الثلاث أيضا وهي : صلة الحرية بالشريعة وصلة الشريعة بالأخلاق وصلة الأخلاق بالله ، وعلى تفصيل هذه الثلاث جاءت آداب القرآن الذى لو بلغت الإنسانية في وصفه بما وسعها ما بلغت مثل قوله تعالى فيه : « الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ذلك هدى الله يهدى به من يشاء »(2) .

---

(1) النحل / ٦٤ .

(2) الزمر / ٢٣ .

وبعد ، فما أفصح وابلغ وما اصح واوضح ما ورد في وصف القرآن من قول النبي صلى الله عليه وسلم :

"فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم وهو الفصل ليس بالهزل" (١) .

وبحق فإن ما تضمنه القرآن الكريم « من العلم الذي هو قوام الأنام في الحلال والحرام ، وفي سائر الأحكام منظمة للأسرة والتعامل الانساني هي وجه من وجوه الإعجاز ولكن ذلك الإيجاز الذي عمد إليه القرطبي لا يغني عن بعض التفصيل ، وذلك ان محمدا صلى الله عليه وسلم جاء إلى قوم لم يكن فيهم قانون منظم ولا نظام للأسرة ، أو للتعامل قائم ، بل كان السائد هو نظام العشائر المبني على التقاليد والعادات الجاهلية فجاء محمد - صلى الله عليه وسلم - بقانون منظم للعلاقات بين الدول ، وللعلاقات بين الاحاد ، وللعلاقات بين الأسرة ينظم العلاقة بين الأبناء والآباء ، وبين حقوق كل طائفة امام الآخر ، ولكي يعرف الناس شريعة محمد صلى الله عليه وسلم التي نزل بها القرآن ، لابد من الموازنة بينها وبين القانون الروماني الذي يعد خير منظم قانوني عرف في العصر القديم ، فإن تلك الموازنة هي التي تبين فضل ما انزل على هذا الأمي ، الذي يقول هذا من عند الله ويستدل على صدقه بما جاء فيه .. ولذلك يقول ان شريعة القرآن هي اقوى وجوه الإعجاز وهي الدالة على إعجازه إلى يوم القيامة وهي قائمة إلى

---

(١) أخرجه الترمذي في ثواب القرآن ، باب في فضل القرآن الكريم رقم ٢٩٠٨ ، والدرامي ج ٢ / ٤٣٥ من حديث حمزه الزيات عن ابن المختار الطائي عن ابن أخي الحارث الأعور عن الحارث وفي إسناده مجهول والحارث الأعور ضعيف وقال الترمذي هذا حديث لا نعرفه إلا من هذا الوجه ، وإسناده مجهول وفي الحارث مقال واخرجه أحمد في المسند رقم ٧٠٤ من طريق محمد بن اسحاق .

اليوم حجة على العربي والأعجمي لا يفترق في قبولها من يعرف اللسان العربي ومن لا يعرفه ، وهي شفاء لا سقام المجتمعات (١) كما قال سبحانه "يأيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور ، وهدى ورحمة للمؤمنين" (٢) .

(١) أصول الفقه للشيخ محمد أبو زهره ٨١ - ٨٤ ٠
(٢) يونس / ٥٧ ٠

٨ - الإعجاز الروحي (النفسي)

٥ - الإعجاز الروحي (النفسي)

لم يفرد الرافعي هذا الوجه من وجوه الإعجاز بالحديث ، وإنما أشار إليه أثناء حديثه عن أسلوب القرآن ، حيث يقول : "تأمل ، هل تصيب في القرآن كله مما بين الدفتين إلا رهبة ظاهرة لا غوية في شيء منها ، وإلا أثرا من التمكين يصف له منزلة المخلوق من أمر الخالق ، وإلا روحا أكبر من أن يكون نفسا إنسانية أو أثرا من آثار هذه النفس ، ثم هل تجد في أغراضه إلا ما كان في وضعه مادة لتلك الرهبة وكذلك الأثر وذلك الروح (١) .

ولقد أشار الخطابي إلى هذا الوجه بتفصيل واضح حيث يقول : "قلت في إعجاز القرآن وجها آخر ذهب عنه الناس ، فلا يكاد يعرفه إلا الشاذ من آحادهم ، وذلك صنيعه بالقلوب ، وتأثيره في النفوس ، فإنك لا تسمع كلاما غير القرآن منظوما ولا منثورا ، إذا قرع السمع خلص إلى القلب من اللذة والحلاوة في حال ، ومن الروعة والمهابة في أخرى ما يخلص إليه "تستبشر به النفوس وتنشرح له الصدور ، حتى إذا أخذت حظها منه عادت مرتاعة قد عراها من الوجيب والقلق ويغشاها الخوف والأرق ، تقشعر منه الجلود وتنزعج له القلوب يحول بين النفس وبين مضمراتها وعقائدها الراسخة فيها ، فكم من عدو للرسول صلى الله عليه وسلم من رجال العرب وفتاكها أقبلوا يريدون اغتياله وقتله فسمعوا آيات من القرآن ، فلم يلبثوا حين وقعت في مسامعهم أن يتحولوا عن رأيهم الأول وأن يركنوا إلى مسالمته ، ويدخلوا في دينه ، وصارت عداوتهم موالاة ، وكفرهم إيمانا" (٢) .

---

(١) إعجاز القرآن للرافعي ص ٢٠٦ .

(٢) بيان إعجاز القرآن للخطابي ص [illegible] .

و - القول بالصرفة ورأى الرافعى فى ذلك .

٩ - القول بالصرفة

يقول الرافعي : ذهب شيطان المتكلمين أبو سحاق ابراهيم النظام إلى ان الإعجاز كان بالصرفة وهى أن الله صرف العرب عن معارضة القرآن مع قدرتهم عليها فكان الصرف فادكا للمادة (١) .

وهذا الذى يروى عنه احد شرطين من رأيه اما الشطر الآخر فهو الإعجاز إنما كان من حيث الإخبار عن الأمور الماضية أو الآتية (٢) .

وانتقد الجاحظ النظام حيث رأى ان قياسه كان مبينا على الظن والجم وليس مبينا على الحقيقة ومن هنا كان فساد رأيه بالنسبة للإعجاز القرآنى حيث انه ادعى أن إعجاز القرآن جاء بالصرف عن معارضته مع القدرة عليه ، يقول الجاحظ :

"إنما كان عيبه الذى لا يفارقه ، سوء ظنه وجوده قياسه على العارض والخاطر والسابق الذى لا يوثق بمثله فلو كان بدل تصححه القياسي التمس تصحيح الأصل الذى قاس عليه كان أمره على الخلاف ، ولكنه كان يظن الظن ثم يقيس عليه وينسى أن بدء أمره كان ظنا ، فإذا اتقت ذلك وأتقن جزم عليه ، وحكاه عن صاحبه حكاية المستبصر فى صحة معناه ولكنه لا يقول سمعت ولا رأيت ، وكان كلامه إذا خرج مخرج الشهادة القاطعة لم يشك السامع انه إنما حكى ذلك عن سماع قد امتحنه ، أو عن معاينة قد بهرته (٣) .

---

(١) إعجاز القرآن للرافعى ص ١٤٤ وبيان إعجاز القرآن للخطابى ص٢٢ والنكت فى إعجاز القرآن للرمانى ص ١٠٦

(٢) الملل والنحل للشهرستانى ص ٣٩ وإعجاز القرآن للرافعى ص ١٤٤ وأثر القرآن فى النقد الأدبى د . محمد زغلول سلام ص ٧٠ .

(٣) المرجع السابق .

ثم يقول الجاحظ : إن النظام وأصحابه كانوا يزعمون أن القرآن حق ، وليس تأليفه بحجة وأنه تنزيل وليس برهان (١) .

ومن نقاد النظام فى رأيه البغدادى ، حيث هاجمه فى ادعائه أن نظم القرآن وأسلوبه وتنسيقه المحكم ليس معجزة للنبى - صلى الله عليه وسلم - ولا دلالة على صدق رسالته ، لأن العرب فى زعمه قادرون على أن يأتوا بمثل هذا النظم ، وإنما يرجع إعجازه إلى إخباره بأمور المغيبة ، يقول البغدادى :

والفضيحة الخامسة عشر من فضائحه قوله : إن نظم القرآن وحسن تأليفه كلماته ليس بمعجزة للنبى صلى الله عليه وسلم ولا دلالة على الصدق فى دعواه النبوة وإنما وجه الدلالة على الصدق ما فيه من اخبار عن الغيب ، فأما نظم القرآن وحسن تأليف آياته ، فإن العباد قادرون على مثله ، وعلى ما هو احسن منه من النظم والتأليف" (٢) .

وانتقد الرافعى النظام بانه مثل الصبية يدعون المعرفة وهم عنها بعيدون حيث يقول "وهذا ما ذهب بفضل بلاغته وغطى على اثره ونقص امره عروة عروة وجعله فى اكثر آرائه بعيدا عما هو غايته مدفعا إلى ما ينزل عن حقه - وهو عندنا رأى لو قال به صبية المكاتب وكانوا هم الذين افتتحوا بدعوه لكان مذنبا من تخاليطهم فى بعض ما يحاون إذا عمدوا إلى القول فيما لا يعرفون ليوحوا أنهم قد عرفوا .

ويرى الرافعى أن من سلب القدرة على شىء بالانصراف

---

(١) اثر القرآن فى النقد الأدبى ص ٧٠ ورسائل الجاحظ ج ١ السندوبى ص ١٤٧ .

(٢) الفرق بين الفرق ص ١٤ واثر القرآن فى النقد ص ٧٠

عنه ، وهو بعد قادر عليه لا يكون تعجيزه بذلك فى البرهان والدليل ، لأنه لم يعجزه عدم القدرة ، وانما أعجزه القدر وإعجاز القدر تعالب ولا يقام لأنه للجميع .

والإنسان قد ينصرف عن الشيء بسبب السام والملل ، فهو احق بأن يسمى متهاونا ولا يسمى عاجزا ، وإنما يأتى العجز عن الشيء عند عدم الإتيان بمثله مع القدرة عليه .

يقول الرافعى ، وإلا فإن من سلب القدرة على شيء بانصراف وهمه عنه وهو بعد قادر عليه يقترن له الا يكون تعجيزه بذلك فى البرهان إلا لعجزه هو عن البرهان ، إذا كان لم يعجزه عدم القدرة ، ولكن أعجزه القدر وهو لا يغالب والمرء ينسى ويذكر وقد يتراجع طبعه فترة لا عجزا ، وقد يضربه السأم ويتخونه الملال ، فنصرف عن الشيء وحوله مطبق وذلك ليس أحق بأن يسمى تهاونا ، ولا هو أدخل فيما يحمل عليه الضعف منه فيما يحمل عليه الثقة (١) .

ثم يذكر الرافعى أن الناس قد انقسموا إلى فريقين ما بين مؤيد لرأى النظام ومعارض له وجادلوا فى ذلك جدالا لا يفيد فانصرفوا عن دراسة القرآن وهو معهم وصار مثلهم كمثل من يبحث عن الماء ، والماء من حوله ، يقول الرافعى ، « على أن القول بالصرفة هو المذهب الناشى من لدن قال به النظام يصوبه فيه قوم ويشايعه عليه آخرون ، ولو احتاج هذا البليغ لصحته وقيامه عليه وتقلده آمره لكان لنا اليوم كتب ممتعة فى بلاغة القرآن واسلوبه وإعجازه اللغوى وما إلى ذلك ولكن القوم عفا الله عنهم - أخرجوا انفسهم من هذا كله وكفوها مؤنته بكلمة واحدة تعلقوا عليها فكانوا فيها جميعا كقول هذا الشاعر الذى يقول :

كأننا والماء من حولنا ... قوم جلوس حولهم ماء

---

(١) إعجاز القرآن للرافعى ص ١٤٦ .

ولم نر أحدا فسر هذه الكلمة والصرفة ـ كابن حزم فإنه قال في كتابه « الفصل في سبب الإعجاز » لم يقل أحد إن كلام غير الله تعالى معجز لكنه لما قاله الله تعالى وجعله كلاما له أصاره ومعجزا ومنع من مماثلته قال ، وهذا برهان كاف لا يحتاج إلى غيره .

نقول بل هو فوق الكفاية ، وأثره من أن يكون كافيا أيضا ، لأنه لما قاله ابن حزم وجعله وإياله ، أصاره كافيا لا يحتاج إلى غيره ... وهل يرى من إثبات الإعجاز للقرآن له إثبات أنه كلام الله تعالى (١) .

فأين يرى أنه لم يدع أحد أن كلام غير الله معجز ، ولكن لما كان القرآن كلام الله وأضافه إليه صيره معجزا ، ومنع من الإتيان بمثله ، وهذا كاف في الإعجاز وفي أنه من عند الله إذ لو يكن من عند الله ما كان معجزا .

وعلى الجملة فإن القول بالصرفة لا يختلف عن قول العرب فيه إن هذا إلا سحر يؤثر (٢) ، وهذا زعم رده الله على أهله والذين هم فيه ، وجعل القول به ضربا من العمى "أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون" (٣) فاعتبر ذلك بعضه فهو كالشيء الواحد (٤) .

وينعى عبد القاهر الجرجاني على هذا القول نعيا شديدا ويسخر منه حيث يقول "أرأيت لو أن نبيا قال لقومه إن آيتي أن أضع يدي على رأس هذه الساعة وتمنعون كلكم من أن تستطيعوا وضع أيديكم على رؤوسكم وكان الأمر كما قال مم يكون تعجب القوم أمن وضع يده على رأسه أم من عجزهم أن

---

(١) إعجاز القرآن للرافعي ص ١٤٦ (٢) المدثر / ٢٤

(٣) الطور / ١٥ . (٤) إعجاز القرآن للرافعي ص ١٤٦

يضعوا ايديهم على رؤوسهم " (١) .

ويقول الخطابى أن :

القول بالصرفة يتعارض مع قول الله تعالى : "قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا" فاشار فى ذلك إلى أمر طريقة التكلف والاجتهاد ، وسبيله التاهب والاحتشاد والمعنى فى الصرفة التى وصفوها لا يلائم هذه الصفة ، فدل على أن المراد غيرها والله اعلم (٢) .

والذى نخلص إليه ان القول بالصرفة فاسد لعدة أمور هى :

١ - لقوله تعالى (قل لئن اجتمعت الإنس والجن على ان يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا) (٣) وهذه الآية الكريمة تدل على أمرين :

أ) انها تدل على عجزهم مع بقاء قدرتهم ولو سلبوا القدرة لم تبق فائدة لاجتماعهم لمنزلته منزلة اجتماع الموتى ، وليس عجز الموتى مما يحتفل بذكره .

ب) ان الإجماع قد انعقد على إضافة الإعجاز إلى القرآن ، فكيف يكون معجزا ، وليس فيه صفة الاعجاز ، بل المعجز هو الله تعالى حيث سلبهم القدرة على الإتيان بمثله (٤) .

---

(١) دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجانى ص ٢٥٣ .
(٢) بيان إعجاز القرآن للخطابى ص ٣١ .
(٣) الإسراء / ٨٨ .
(٤) البرهان فى علوم القرآن للزركشى ج ٢ / ٩٤ .

٢ - وايضا فإنه يلزم من القول بالصرفة فساد آخر ، وهو زوال الإعجاز بزوال زمان التحدى ، وخلو القرآن من الإعجاز ، وفى ذلك خرق لإجماع الأمة ، فإنهم اجمعوا على بقاء معجزة الرسول - صلى الله عليه وسلم - العظمى ، ولا معجزة له باقية سوى القرآن ، وخلوه من الإعجاز يبطل كونه معجزة (١) .

٣ - إن القول بالصرفة لا يختلف عن قول العرب فى القرآن إن هذا إلا سحر يؤثر » (٢) وقولهم «ما هذا إلا سحر مفترى » (٣) .

وهذا زعم باطل رده الله على اهله واكذبهم فيه ، وجعل القول به ضربا من العمى ، يقول عز شانه « أفسحر هذا ام أنتم لا تبصرون » (٤) فاعتبر بعضه ببعضه فهو كالشىء الواحد (٥) .

ولقد حكى الله عز وجل عن بعض مردتهم وشياطينهم - يقال انه الوليد بن المغيرة - إنه لما طال فكره فى امر القرآن وكثر عجزه منه ، وضرب له الأخماس من رايه فى الأسداس لم يقدر على اكثر من قوله « إن هذا إلا قول البشر » (٦) عنادا للحق وجهلا به وذهابا عن الحكمة وانقطاعا دونها وقد وصف ذلك من حاله وشدة حيرته ، فقال سبحانه : « إنه فكر وقدر فقتل كيف قدر ، ثم نظر ، ثم عبس وبسر ، ثم أدبر واستكبر فقال ان هذا إلا سحر يؤثر إن هذا إلا قول البشر » (٧) ولم يقتصر الأمر على الوليد ، بل علل المشركون عجزهم بعد التفكير والتقدير وقالوا بأحكام

(١) الإتقان فى علوم القرآن ج ٢ / ١٥١ .
(٢) المدثر / ٢١ . (٣) القصص / ٣٦ . (٤) الطور / ١٥
(٥) الإتقان فى علوم القرآن ج ٢ / ١٥١ .
(٦) المدثر / ٢٢ . (٧) المدثر / ١٤ - ٢٢ .

الله تعالى منهم « ما هذا إلا سحر مفترى وما سمعنا بهذا فى آبائنا الأولين » (١) وقوله عز شانه « ولو نزلنا عليك كتابا فى قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين » (٢) وقالوا أيضا عن الرسول صلى الله عليه وسلم « شاعر نتربص به ريب المنون » (٣) فرد المولى عز وجل عليهم بقوله : « إنه لقول رسول كريم وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون » (٤) . وقال جل ثناؤه « وما علمناه الشعر وما ينبغى له إن هو إلا ذكر وقرآن مبين » (٥) .

وإذا كان الله عز وجل قد وصف القرآن بتلك الصفات ، أفيقال بعد ذلك إن البشر يستطيعون أن يأتوا بمثله ؟ سبحانك ربى إن هذا البهتان عظيم .

٤ - إنه لو كان الأمر كما زعموا - من أنهم صرفوا عن المعارضة مع تمكنهم منها الواجب أن يعلموا ذلك من أنفسهم بالضرورة ، وأن يميزوا بين أوقات المنع ، والتجلية ولو علموا ذلك لوجب أن يتذاكروا فى حال هذا المعجز على جهة التعجب ، ولو تذاكروه لظهر وانتشر على حد التواتر ، فلما لم يكن ذلك دل على بطلان مذهبهم فى الصرفة .

٥ - لو كان الوجه فى إعجازه هو الصرفة كما زعموا لما كانوا مستعظمين لفصاحة القرآن ، فلما ظهر منهم التعجب لبلاغته وحسن فصاحته - كما أثر عن الوليد بن المغيرة قال : ان أعلاه لمشرق وان أسفله لمغدق ، وإن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة - فإن المعلوم من كل بليغ وفصيح سمع

---

(١) القصص / ٣٦ . (٢) الأنعام / ٧ .

(٣) الطور / ٣٠ (٤) الحاقة / ٤٠ - ٤٢

(٥) يس / ٦٩ .

القرآن يتلى عليه ، فإنه يدهش عقله ويحير لبه ، وما ذاك إلا لما قرع مسامعهم من لطيف التأليف ، وحسن مواقع التصريف في كل موعظة ، وحكاية كل قصة ، فلو كان كما زعموه من الصرفة لكان العجب من غير ذلك ، ولهذا فإن نبيا لو قال ؛ إن معجزتي أن أضع هذه الرمانة في كفي ، وأنتم لا تقدرون على ذلك ، لم يكن تعجب القوم من وضع الرمانة في كفه ، بل كان من أعلى تقدره عليهم ، مع أنه كان مألوفا لهم ومقدورا عليه من جهتهم ، فلو كان كما زعمه أهل الصرفة لم يكن للتعجب من فصاحته وجه ، فلما علمنا بالضرورة إعجابهم بالبلاغة دل على فساد هذه المقالة (١) .

(١) السابق ج ٣ / ٣٩٤ .

الباب الثانى

افتراءات بعض البشر على القرآن
ورد الرافعى عليها



افتراءات بعض البشر على القرآن
ورد الرافعي عليها

وشمل ذلك :

أ - نماذج من القديم .

ب -نماذج من العصر الحديث .

أ - نماذج من القديم : معارضو القرآن فيما زعموا

١ - مسيلمة الكذاب .
٢ - ابن المقفع .
٣ - ابن الراوندى .
٤ - المتنبى .
٥ - أبو العلاء المعرى .
٦ - شبهة باطلة حول تواتر القرآن .

أ - نماذج من التنبؤ :

معارضو القرآن فيما زعموا :

أورد الرافعي - على ثبوت العجز عن معارضة القرآن تلك الشبهة ، وهي أن بعض العرب قد عارضوا القرآن حيث يقول "على أن التاريخ لا يخلو من اسماء قوم قد زعموا انهم عارضوا القرآن" (١) ومن هؤلاء :
مسيلمة الكذاب - والأسود العنسي - وطليحة الأسدى - وعصبية الدم سجاح التميمية والنظربن الحارث ، وابن المقفع وابن الراوندى والمتنبى والمعرى .

ا - مسيلمة بن حبيب الكذاب :

تنبأ باليمامة فى بنى حنيفة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وكتب إليه سنة عشر للهجرة ، "أما بعد فإنى قد شوركت فى الأرض معك وإنما لنا نصف الأرض ولقريش نصفها ، لكن قريشا قوم يعتدون" .

وقد زعم مسيلمة الكذاب أن له قرآنا نزل عليه من السماء ويأتيه به ملك يسمى رحمن ومن قرآنه الذى زعمه أخزاه الله : "الفيل ما الفيل ، وما أدراك ما الفيل له ذنب طويل وخرطوم طويل ..." (٢) وقوله أخزاه الله : "يا ضفدع نقى فإنك نعم ما تنقين لا واردا تنفرين ولا ماء تكدرين ، يا وبر يا وبر وصدر ، وسائرك حفر نقر" (٣) .

واتى اناس يختصمون إليه فى نخل قطعها بعضهم لبعض

(١) ، (٢) إعجاز القرآن للرافعى ص ١٧٥ .
(٣) بيان إعجاز القرآن لأبى سليمان حمد بن ابراهيم الخطابى ص ٥١ .

فتسجى بقطيفة ثم كشف رأسه فقال "والليل الأدهم ، والذئب الأسحم ، ما جاء بنو ابو مسلم من محرم ثم تسجى الثانية فقال : "والليل الدامس ، والذئب الهامس ، ما حرمته رطبا إلا كحرمته يابس" (١) .

وقوله :
"والمبذرات زرعا والحاصدات حصدا والذاريات قمحا ، والطاحنات طحنا والعاجنات عجنا ، والخابزات خبزا ، والثاردات ثردا ، واللاقمات لقما ، اما لة وسمينا لقد فضلتم على اهل الوبر ، وما سبقكم أهل المدر ، ريفكم فامنعوه والشر فآووه ، والباغى فناوئوه " (٢) .

وينقل الرافعى قول الجاحظ فى الحيوان عند القول فى الضفدع : "ولا أدرى ما هيج مسيلمة على ذكرها ، ولم ساء رأيه فيها حتى جعل بزعمه فيها فيما نزل عليه من قرآن يا ضفدع بنت ضفدعين ... الخ .

وكل كلامه على هذا النمط من السخف واه سخيف لا ينهض ولا يتماسك بل هو مضطرب النسج مبتذل المعنى مستهلك من جهتيه ، وما كان الرجل من السخف بحيث ترى ، ولا من الجهل بمعانى الكلام وسوء البصر بمواضعه .

ومن ذلك يخلص لنا أن القرآن الكريم إنما ينفرد بأسلوبه لأنه ليس وضعا إنسانيا البتة ، ولو كان من وضع إنسان لجاء على طريقة تشبه اسلوبا من اساليب العرب أو من جاء من بعدهم إلى هذا العهد ولا من الاختلاف فيه عند ذلك بد فى طريقته ونسقه ومعانيه :

---

(١) إعجاز القرآن للرافعى ص ١٧٥ .

(٢) السابق ص ١٧٥ .

" ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا " (١) .
ولقد احس العرب بهذا المعنى واستيقنه بلغاؤهم ولولاه ما اقحموا ولا انقطعوا من دونه لأنهم راوا جنسا من الكلام غير ما تؤديه طباعهم ، وكيف لهم فى معارضته بطبيعة غير مخلوقة ؟

ولما حاول مسيلمة أن يعارضه جعل يطبع على قالبه فجاء بشىء لا يشبهه ولا يشبه كلام نفسه وجنح إلى أقرب ما فى الطباع الإنسانية وأقوى ما فى أوهام العرب من طرق السجع فأخطأ الفصاحة من كل جهاتها وإن الرجل على ذلك لفصيح (٢) .

٢ - ابن المقفع :

زعم بعض المغرضين أنه اشتغل بمعارضة القرآن مدة ثم مزق ما جمع واستحيا لنفسه من إظهاره .

ويرى الرافعى أن هذا "إنما هو تصحيح من بعض العلماء لما تزعمه الملاحدة من أن كتاب الدرة اليتيمة لابن المقفع هو فى معارضة القرآن فكان الكذب لا يدفع إلا بالكذب وإذا قال هؤلاء إن الرجل قد عارض وأظهر كلامه ثقة منه بقوته وفصاحته وأنه فى ذلك من وزن القرآن وطبقته ، وابن المقفع هو من هو فى هذا الأمر، قال أولئك ، بل عارض ومزق واستحيا لنفسه ...

أما نحن فنقول ، إن الروايتين مكذوبتان جميعا ، وأن ابن المقفع من أبصر الناس باستحالة المعارضة ، لا لشىء من الأشياء إلا لأنه من أبلغ الناس وإذا قيل لك إن فلانا يزعم

---

(١) النساء / ٨٢ .
(٢) إعجاز القرآن للرافعى ص ٢٠١ .

إمكان المعارضة ويحتج لذلك وينازع فيه فاعلم ان فلانا هذا في الصناعة احد رجلين اثنين : إما جاهل يصدق نفسه وإما عالم يكذب على الناس ، وليس يكون « فلان » ثالث ثلاثة .

ثم يوضح السبب فى نسبة المعارضة إلى ابن المقفع فى قوله " وإنما نسبت المعارضة لابن المقفع دون غيره من بلغاء الناس لأن فتنة الفرق الملحدة إنما مكنت بعده ، وكان البلغاء كافة لا يمترون فى إعجاز القرآن وإن اختلفوا فى وجه إعجازه ثم كان ابن المقفع متهما عند الناس فى دينه فدفع بعض ذلك إلى بعض وتهيأت النسبة من الجملة (١) .

٣ - أبو الحسين احمد بن يحي المعروف بابن الراوندي*

وكان رجلا تمكنت عليه شقوة الكلام ، فبسط لسانه فى مناقضة الشريعة ، وقد وضع عدة مؤلفات فاسدة منها :
أ - كتاب "الفرند" قد يطعن على النبى صلى الله عليه وسلم يقول فيه : "إن المسلمين احتجوا لنبوة نبيهم بالقرآن الذى تحدى به النبى فلم تقدر على معارضته ، فيقال لهم اخبرونا : لو ادعى مدع لمن تقدم من الفلاسفة ... مثل دعواكم فى القرآن فقال : الدليل على صدق بطليموس أو إقليدس إدعى الخلق يعجزون عن أن ياتوا بمثل كتابه" ، اكانت نبوته تثبت ؟

وهذا دليل على جهله وفساد قياسه ، وإنه يمضى فى قضية لا برهان له بها "فاعجب لهذا الجهل الذى يكون قياسا من اقيسة العلم واعجب الكلام الذى يقال فيه : إن هذا كتاب وذلك كتاب فكلاهما كتاب ولما كان كذلك فاحدهما مثل الآخر ولما كان احدهما معجزا فالتالى معجز لا محالة ، وما ثبت لصاحب الأول يثبت بالطبع لصاحب الثانى وما دمنا نعرف أن

(١) إعجاز القرآن الكريم للرافعى ص ١٧٩ .
* ت (٢٩٣ هـ) .

صاحب الكتاب الثانى لم تثبت له نبوة ، فنبذوه صاحب الكتاب الأول لا تثبت .

لعمرى إن مثل هذه الأقيسة التى يحسبها ابن الراوندى سبيلا من الحجة وبابا من البرهان لهى فى حقيقة العلم كأشد هذيان عرفه الأطباء قط وإلا فأين كتاب من كتاب ؟ (١) وأين وضع من وضع ؟ وأين قوم من قوم ؟ وأين رجل من رجل ؟ .

ولو أن الإعجاز كان فى ورق القرآن وفيما يخط عليه لكان كل كتاب فى الأرض ككل كتاب فى الأرض ولا طرد ذلك القياس كله على ما وضعه كما يطرد القياس عينه فى قولنا : إن كل حمار يتنفس ، وابن الراوندى يتنفس ، فابن الراوندى يكون ماذا ... ولو أن مثل هذه السخافة تسمى علما تقوم به الحجة فيما يحتج له ويبطل به البرهان فيما يحتج عليه ، لما بقيت فى الأرض حقيقة صريحة ولا حق معروف ولا شيء يسمى باسمه ولكان هذا اللسان المتكلم قد عبدته أمم كثيرة لأن فيه قوة من قوى الخلق ولأنك لا تجد سخيفا من سخفاء المتكلمين الذين يعتدون من ذلك علما كابن الراوندى مثلا - إلا وجدته قد أمعن فى سخفه فلا تدرى أجعل آلهه هواه ، ثم جعل آلهه فى فمه ؟ .

ب - كتاب التاج ويحتج فيه صاحبه لقدم العالم وانه ليس للعالم صانع ولا مدبر ولا خالق .

ج - كتاب الدامغ ويطعن فيه على القرآن ، وقد وضعه لأوى اليهودى وطعن فيه على نظم القرآن وقد نقضه ابن الخياط وابو على الجبائى ، قالوا : ونقضه على نفسه ... والسبب فى

---

(١) كتاب : إقليدس مثلا فى الهندسة ، وهى علم فئة بخلاف البيان الذى كان طبيعة فى العرب .

ذلك انه كان يؤلف لليهود والنصارى الثنوية وأهل التعطيل بامتحان يعيش منها فيضع لهم الكتاب لمن يتهددهم بنقصه وافساده إذا لم يدفعوا له ثمن سلوته .

اما ما قيل عن معارضته للقرآن فلم يعلم بعضها إلا ما نقله صاحب "معاهد التنصيص" قال اجتمع ابن الراوندى هو وابو على الجبائى يوما على جسر بغداد فقال له :يا ابا على الا تسمع شيئا عن معارضتى للقرآن ونقضى له ؟ قال الجبائى انا اعلم بمخازى علومك وعلوم أهل دهرك ، ولكن احاكمك إلى نفسك فهل تجد فى معارضتك له عذوبة وهشاشة وتشاكلا وتلاؤما ونظما كنظمه وحلاوة كحلاوته ؟ قال : لا والله . قال : كفيتنى ، فانصرف حيث شئت .

ومن مؤلفاته ايضا : الزمرة ، وقضيب الذهب ، والمرجان ، وهى فيما وصفت به ظلمات بعضها فوق بعض ، وكلها اعتراض على الشريعة والنبوة بمثل تلك السخافة التى لا يبعث عليها عقل صحيح ولا يقيم وزنها علم راجح .

وقد ذكر المعرى هذه الكتب فى رسالة الغفران ووفى الرجل حسابه عليها وبصق على كتبه مقدار دلو من السجع وناهيك من سجع ، المعرى الذى يلعن باللفظ قبل ان يلعن بالمعنى ومما قاله فى التاج :
واما تاجه فلا يصلح أن يكون فعلا .... وهل تاجه إلا كما قالت الكاهنة : أف وتف (1) وجورب وخف . قيل وما جورب وخف ؟ قالت : واديان بجهنم .

٤ - أبو الطيب المتنبى :

المتوفى قتلا سنة ٣٥٤ ، فقد ادعى النبوة فى حدثان أمره

(1) الأف : وسخ الأذن . والتف : وسخ الأنف .

وكان ذلك في بأدية السماواة - بين الكوفة والشام - وقيل إنه تلا على البوادى كلاما زعم انه قرآن انزل عليه ومن ذلك قوله : "والنجم السيار والفلك الدوار ، والليل والنهار ، إن الكافر لفي اخطار ، امض على سنتك ، واقف اثر من قبلك من المرسلين ، فإن الله قامع بك زيغ من ألحد في دينه ، وضل عن سبيله" .

وقال معاتبا صديقا له : "وصلتني وصلك الله معتلا ، وقطعتني مبلا ، فإن رأيت تجيب العلة إلى ولا تكدر الصحة على فعلت إن شاء الله" .

ورأى الرافعي أن هذا وشبهه إنما هو بعض شعره منثورا ، وهي المعاني التي تقع في خواطر الشعراء قبل النظم ، وما من شاعر بليغ إلا هو يحسن أن يقول هذا وأحسن منه ، وإن كان فيما وراء ذلك من صناعة الترسل ودواوين الكتابة لا يغنى قليلا ولا كثيرا .

ولم يكن المتنبى كاتبا ولا بصيرا بأساليب الكتابة وصناعتها ووجوهها ، ولا هو عربي فصيح من فصحاء البادية وإن كان في حفظ اللغة ما هو ، فليس يمنع سقوط ذلك الكلام الذى نسب إليه من أن تكون نسبته إليه صحيحة لأنه لو أراده في معارضة القرآن ما جاء بأبلغ منه (١) .

٥ - أبو العلاء المعرى ت ٤٤٩ :

اتهم أبو العلاء المعرى بأنه عارض القرآن بكتاب سماه "الفصول والغايات في مجاراة السور والآيات" وقد قيل له : ما هذا إلا جيد ، غير أنه ليس عليه طلاوة القرآن فقال : حتى تصقله الألسن في المحاريب أربعمائة سنة ، وعندئذ انظروا كيف يكون .

---

(١) هامش الكامل ج ٢ / ١١١ وإعجاز القرآن للرافعي ص ١٨٣

وقيل إن من كتابه هذا قوله : "اقسم بخالق الخيل ، والريح الهابة بليل ، بين الشرط مطلع سهيل إن الكافر لطويل الويل وإن العمر لمكفوف الذيل ، تعد مدارج السيل ، وطالع التوبة من قبيل ، تنج وما اخا لك بناج" .

فلفظ "ناج" هي الغاية ، وما قبلها فصل مسجوع ، فيبتدئ بالفصل ثم ينتهي إلى الغاية ، وهكذا كما ترى عكس الفواصل في القرآن الكريم ، لأنها تأتي خواتم لآياته فكأن المعارضة نقض للوضع ومجاراة للموضوع ، وكأنها صنعة وطبع .

ويرى الرافعي أن تلك فرية على المعري اراده بها عدو خادق ، لأن - الرجل ابصر بنفسه وبطبقة الكلام الذي يعارضه ، وما تراه إلا أعرف الناس باضطراب أسلوبه والتواء مذهبه ، وإن البلاغة لا تكون مراغمة للغة واغتصابا لألفاظها وتوطينا لغرائبها كما يصنع وإن الفصاحة شيء غير صلابة الحنجرة وإفاضة الإملاء ودفع الكلمة في قفا الكلمة حتى يخرج الأسلوب متعثرا يسقط بعضه في جهة وينهض بعضه في جهة ، ويستقيم من ناحية ويلتوي من ناحية ، وإنه عسى أن لا يكون في اضطراب النسق وتوعر اللفظ واستهلاك المعنى وفساد المذهب الكتابي وضعف الطريقة البيانية شر من هذا كله وما أسلوب المعرض إلا من هذا كله .

على أن المعري - رحمه الله - قد اثبت إعجاز القرآن فيما انكره من رسالته على ابن الراوندي ، فقال :
"واجمع ملحد ومهتدي ، وناكب عن المحجة ومقتدي ان هذا الكتاب الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم كتاب بهر الإعجاز ولقي عدوه بالارجاز ما حذى على مثال ولا اشبه غريب الأمثال ما هو من القصيد الموزون ، ولا في الرجز من سهل وحزون ، ولا شاكل خطابه العرب ولا سجع الكهنة ذوي الارب وإن الآية منه أو بعض الآية لتعترض في افصح كلم يقدر عليه المخلوقون ، فتكون كالشهاب المتلالئ في جنح غسق ،

الله تعالى عنهم « ما هذا إلا سحر مفترى وما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين » (١) وقوله عز شأنه « ولو نزلنا عليك كتابا في قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين » (٢) وقالوا أيضا عن الرسول صلى الله عليه وسلم « شاعر نتربص به ريب المنون » (٣) فرد المولى عز وجل عليهم بقوله : « إنه لقول رسول كريم وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون » (٤) . وقال جل ثناؤه « وما علمناه الشعر وما ينبغي له إن هو إلا ذكر وقرآن مبين » (٥) .

وإذا كان الله عز وجل قد وصف القرآن بتلك الصفات ، أفيقال بعد ذلك إن البشر يستطيعون أن يأتوا بمثله ؟ سبحانك ربي إن هذا البهتان عظيم .

٤ - إنه لو كان الأمر كما زعموا ، من أنهم صرفوا عن المعارضة مع تمكنهم منها الواجب أن يعلموا ذلك من أنفسهم بالضرورة ، وأن يميزوا بين أوقات المنع ، والتجلية ولو علموا ذلك لوجب أن يتذاكروا في حال هذا المعجز على جهة التعجب ، ولو تذاكروه لظهر وانتشر على حد التواتر ، فلما لم يكن ذلك دل على بطلان مذهبهم في الصرفة .

٥ - لو كان الوجه في إعجازه هو الصرفة كما زعموا لما كانوا مستعظمين لفصاحة القرآن ، فلما ظهر منهم التعجب لبلاغته وحسن فصاحته - كما أثر عن الوليد بن المغيرة قال : ان أعلاه لمشرق وان أسفله لمغدق ، وإن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة - فإن المعلوم من كل بليغ وفصيح سمع

---

(١) القصص / ٣٦ . (٢) الأنعام / ٧ .
(٣) الطور / ٣٠ (٤) الحاقة / ٤٠ - ٤٢
(٥) يس / ٦٩ .

القرآن يتلى عليه ، فإنه يدهش عقله ويحير لبه ، وما ذاك إلا لما قرع مسامعهم من لطيف التأليف ، وحسن مواقع التصريف في كل موعظة ، وحكاية كل قصة ، فلو كان كما زعموه من الصرفة لكان العجب من غير ذلك ، ولهذا فإن نبيا لو قال : إن معجزتي أن أضع هذه الرمانة في كفي ، وأنتم لا تقدرون على ذلك ، لم يكن تعجب القوم من وضع الرمانة في كفه ، بل كان من أعلى تقدره عليهم ، مع أنه كان مألوفا لهم ومقدورا عليه من جهتهم ، فلو كان كما زعمه أهل الصرفة لم يكن للتعجب من فصاحته وجه ، فلما علمنا بالضرورة إعجابهم بالبلاغة دل على فساد هذه المقالة (١) .

---

(١) السابق ج ٣ / ٣٩٤ .

البـــاب الثانى

افتراءات بعض البشر على القرآن
ورد الرافعى عليها

افتراءات بعض البشر على القرآن
ورد الرافعي عليها

وشمل ذلك ،

أ - نماذج من القديم .

ب -نماذج من العصر الحديث .

أ - نماذج من القديم : معارضو القرآن فيما زعموا

١ - مسيلمة الكذاب .
٢ - ابن المقفع .
٣ - ابن الراوندى .
٤ - المتنبى .
٥ - ابو العلاء المعرى .
٦ - شبهة باطلة حول تواتر القرآن .

أ - نماذج من التنيم :

معارضو القرآن فيما زعموا :

اورد الرافعي - على ثبوت العجز عن معارضة القرآن تلك الشبهة ، وهي أن بعض العرب قد عارضوا القرآن حيث يقول "على ان التاريخ لا يخلو من اسماء قوم قد زعموا انهم عارضوا القرآن" (١) ومن هؤلاء :
مسيلمة الكذاب - والأسود العنسي - وطليحة الأسدى - وعصبية الدم سجاح التميمية والنظرين الحارث ، وابن المقنع وابن الراوندى والمتنبى والمعرى .

ا - مسيلمة بن حبيب الكذاب :

تنبأ باليمامة في بني حنيفة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وكتب إليه سنة عشر للهجرة : "أما بعد فإني قد شوركت في الأرض معك وإنما لنا نصف الأرض ولقريش نصفها ، لكن قريشا قوم يعتدون" .

وقد زعم مسيلمة الكذاب ان له قرآنا نزل عليه من السماء ويأتيه به ملك يسمى رحمن ومن قرآنه الذى زعمه أخزاه الله : "الفيل ما الفيل ، وما أدراك ما الفيل له ذنب طويل وخرطوم طويل ..." (٢) وقوله أخزاه الله : "يا ضفدع نقى فإنك نعم ما تنقين لا واردا تنفرين ولا ماء تكدرين ، يا وبر يا وبر وصدر ، وسائرك حفر نفر" (٣) .

وأتى أناس يختصمون إليه في نخل قطعها بعضهم لبعض

(١) ، (٢) إعجاز القرآن للرافعي ص ١٧٥ .
(٣) بيان إعجاز القرآن لأبى سليمان حمد بن ابراهيم الخطابى ص ٥١ .

فتسجى بقطيفة ثم كشف رأسه فقال "والليل الأدهم ، والذئب الأسحم ، ما جاء بنو أبو مسلم من محرم ثم تسجى الثانية فقال : "والليل الدامس ، والذئب الهامس ، ما حرمته رطبا إلا كحرمته يابس" (١) .

وقوله :
"والمبذرات زرعا والحاصدات حصدا والذاريات قمحا ، والطاحنات طحنا والعاجنات عجنا ، والخابزات خبزا ، والثاردات ثردا ، واللاقمات لقما ، اما لة وسمينا لقد فضلتم على أهل الوبر ، وما سبقكم أهل المدر ، ريفكم فامنعوه والشر فآووه ، والباغى فناوئوه " (٢) .

وينقل الرافعى قول الجاحظ فى الحيوان عند القول فى الضفدع : "ولا أدرى ما هيج مسيلمة على ذكرها ، ولم ساء رأيه فيها حتى جعل بزعمه فيها فيما نزل عليه من قرآن يا ضفدع بنت ضفدعين ... الخ .

وكل كلامه على هذا النمط من السخف واه سخيف لا ينهض ولا يتماسك بل هو مضطرب النسج مبتذل المعنى مستهلك من جهتيه ، وما كان الرجل من السخف بحيث ترى ، ولا من الجهل بمعانى الكلام وسوء البصر بمواضعه .

ومن ذلك يخلص لنا أن القرآن الكريم إنما ينفرد بأسلوبه لأنه ليس وضعا إنسانيا البتة ، ولو كان من وضع إنسان لجاء على طريقة تشبه اسلوبا من اساليب العرب أو من جاء من بعدهم إلى هذا العهد ولا من الاختلاف فيه عند ذلك بد فى طريقته ونسقه ومعانيه :

(١) إعجاز القرآن للرافعى ص ١٧٥ .
(٢) السابق ص ١٧٥ .

" ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا "(١) .
ولقد احس العرب بهذا المعنى واستيقنه بلغاؤهم ولولاه ما اقحموا ولا انقطعوا من دونه لأنهم رأوا جنسا من الكلام غير ما تؤديه طباعهم ، وكيف لهم في معارضته بطبيعة غير مخلوقة ؟

ولما حاول مسيلمة أن يعارضه جعل يطبع على قالبه فجاء بشيء لا يشبهه ولا يشبه كلام نفسه وجنح إلى اقرب ما في الطباع الإنسانية واقوى ما في أوهام العرب من طرق السجع فاخطأ الفصاحة من كل جهاتها وإن الرجل على ذلك لفصيح (٢) .

٢ - ابن المقفع :

زعم بعض المغرضين انه اشتغل بمعارضة القرآن مدة ثم مزق ما جمع واستحيا لنفسه من إظهاره .

ويرى الرافعي ان هذا "إنما هو تصحيح من بعض العلماء لما تزعمه الملاحدة من ان كتاب الدرة اليتيمة لابن المقفع هو في معارضة القرآن فكان الكذب لا يدفع إلا بالكذب وإذا قال هؤلاء إن الرجل قد عارض واظهر كلامه ثقة منه بقوته وفصاحته وانه في ذلك من وزن القرآن وطبقته ، وابن المقفع هو من هو في هذا الأمر، قال اولئك ؛ بل عارض ومزق واستحيا لنفسه ...

اما نحن فنقول ، إن الروايتين مكذوبتان جميعا ، وإن ابن المقفع من ابصر الناس باستحالة المعارضة ، لا لشيء من الأشياء إلا لأنه من ابلغ الناس وإذا قيل لك إن فلانا يزعم

---

(١) النساء / ٨٢ .

(٢) إعجاز القرآن للرافعي ص ٢٠١ .

إمكان المعارضة ويحتج لذلك وينازع فيه فاعلم أن فلانا هذا في الصناعة أحد رجلين اثنين : إما جاهل يصدق نفسه وإما عالم يكذب على الناس ، وليس يكون « فلان » ثالث ثلاثة .

ثم يوضح السبب في نسبة المعارضة إلى ابن المقفع في قوله " وإنما نسبت المعارضة لابن المقفع دون غيره من بلغاء الناس لأن فتنة الفرق الملحدة إنما مكنت بعده ، وكان البلغاء كافة لا يمترون في إعجاز القرآن وإن اختلفوا في وجه إعجازه ثم كان ابن المقفع متهما عند الناس في دينه فدفع بعض ذلك إلى بعض وتهيأت النسبة من الجملة "(1) .

٣ - أبو الحسين أحمد بن يحي المعروف بابن الراوندي*

وكان رجلا تمكنت عليه شقوة الكلام ، فبسط لسانه في مناقضة الشريعة ، وقد وضع عدة مؤلفات فاسدة منها :
أ - كتاب "الفرند" قد يطعن على النبي صلى الله عليه وسلم يقول فيه : "إن المسلمين احتجوا لنبوة نبيهم بالقرآن الذي تحدى به النبي فلم تقدر على معارضته ، فيقال لهم أخبرونا : لو ادعى مدع لمن تقدم من الفلاسفة ... مثل دعواكم في القرآن فقال : الدليل على صدق بطليموس أو إقليدس إدعى الخلق يعجزون عن أن يأتوا بمثل كتابه" ، أكانت نبوته تثبت ؟

وهذا دليل على جهله وفساد قياسه ، وإنه يمضي في قضية لا برهان له بها "فاعجب لهذا الجهل الذي يكون قياسا من أقيسة العلم وأعجب الكلام الذي يقال فيه : إن هذا كتاب وذلك كتاب فكلاهما كتاب ولما كان كذلك فأحدهما مثل الآخر ولما كان أحدهما معجزا فالتالي معجز لا محالة ، وما ثبت لصاحب الأول يثبت بالطبع لصاحب الثاني وما دمنا نعرف أن

---

(1) إعجاز القرآن الكريم للرافعي ص ١٧٩ .
* ت (٢٩٢ هـ) .

صاحب الكتاب الثانى لم تثبت له نبوة ، فنبذوه صاحب الكتاب الأول لا تثبت .

لعمرى إن مثل هذه الأقيسة التى يحسبها ابن الراوندى سبيلا من الحجة وبابا من البرهان لهى فى حقيقة العلم كأشد هذيان عرفه الأطباء قط وإلا فأين كتاب من كتاب ؟ (1) وأين وضع من وضع ؟ وأين قوم من قوم ؟ وأين رجل من رجل ؟ .

ولو أن الإعجاز كان فى ورق القرآن وفيما يخط عليه لكان كل كتاب فى الأرض ككل كتاب فى الأرض ولا طرد ذلك القياس كله على ما وضعه كما يطرد القياس عينه فى قولنا : إن كل حمار يتنفس ، وابن الراوندى يتنفس ، فابن الراوندى يكون ماذا ... ولو أن مثل هذه السخافة تسمى علما تقوم به الحجة فيما يحتج له ويبطل به البرهان فيما يحتج عليه ، لما بقيت فى الأرض حقيقة صريحة ولا حق معروف ولا شيء يسمى باسمه ولكان هذا اللسان المتكلم قد عبدته أمم كثيرة لأن فيه قوة من قوى الخلق ولأنك لا تجد سخيفا من سخفاء المتكلمين الذين يعتدون من ذلك علما كابن الراوندى مثلا - إلا وجدته قد أمعن فى سخفه فلا تدرى أجعل آلهه هواه ، ثم جعل آلهه فى فمه ؟ .

ب - كتاب التاج ويحتج فيه صاحبه لقدم العالم وأنه ليس للعالم صانع ولا مدبر ولا خالق .

ج - كتاب الدامغ ويطعن فيه على القرآن ، وقد وضعه لأوى اليهودى وطعن فيه على نظم القرآن وقد نقضه ابن الخياط وأبو على الجبائى ، قالوا : ونقضه على نفسه ... والسبب فى

---

(1) كتاب : إقليدس مثلا فى الهندسة ، وهى علم فئة بخلاف البيان الذى كان طبيعة فى العرب .

ذلك أنه كان يؤلف لليهود والنصارى الثنوية وأهل التعطيل بامتحان يعيش منها فيضع لهم الكتاب لمن يتهددهم بنقصه وافساده إذا لم يدفعوا له ثمن سلوته .

أما ما قيل عن معارضته للقرآن فلم يعلم بعضها إلا ما نقله صاحب "معاهد التنصيص" قال اجتمع ابن الراوندى هو وأبو على الجبائى يوما على جسر بغداد فقال له : يا أبا على ألا تسمع شيئا عن معارضتى للقرآن ونقضى له ؟ قال الجبائى أنا أعلم بمخازى علومك وعلوم أهل دهرك ، ولكن أحاكمك إلى نفسك فهل تجد فى معارضتك له عذوبة وهشاشة وتشاكلا وتلاؤما ونظما كنظمه وحلاوة كحلاوته ؟ قال : لا والله . قال : كفيتنى ، فانصرف حيث شئت .

ومن مؤلفاته أيضا : الزمرة ، وقضيب الذهب ، والمرجان ، وهى فيما وصفت به ظلمات بعضها فوق بعض ، وكلها اعتراض على الشريعة والنبوة بمثل تلك السخافة التى لا يبعث عليها عقل صحيح ولا يقيم وزنها علم راجح .

وقد ذكر المعرى هذه الكتب فى رسالة الغفران ووفى الرجل حسابه عليها وبصق على كتبه مقدار دلو من السجع وناهيك من سجع ، المعرى الذى يلعن باللفظ قبل أن يلعن بالمعنى ومما قاله فى التاج :
وأما تاجه فلا يصلح أن يكون فعلا .... وهل تاجه إلا كما قالت الكاهنة : أف وتف (١) وجورب وخف . قيل وما جورب وخف ؟ قالت : واديان بجهنم .

٤ - أبو الطيب المتنبى :

المتوفى قتلا سنة ٣٥٤ ، فقد ادعى النبوة فى حدثان أمره

---

(١) الأف : وسخ الأذن . والتف : وسخ الأنف .

وكان ذلك فى بأدية السماواة - بين الكوفة والشام - وقيل إنه تلا على البوادى كلاما زعم انه قرآن انزل عليه ومن ذلك قوله : "والنجم السيار والفلك الدوار ، والليل والنهار ، إن الكافر لفى اخطار ، امض على سنتك ، واقف أثر من قبلك من المرسلين ، فإن الله قامع بك زيغ من الحد فى دينه ، وضل عن سبيله" .

وقال معاتبا صديقا له : "وصلتنى وصلك الله معتلا ، وقطعتنى ميلا ، فإن رايت تجيب العلة إلى ولا تكدر الصحة على فعلت إن شاء الله" .

وراى الرافعى ان هذا وشبهه إنما هو بعض شعره منثورا ، وهى المعانى التى تقع فى خواطر الشعراء قبل النظم ، وما من شاعر بليغ إلا هو يحسن أن يقول هذا واحسن منه ، وإن كان فيما وراء ذلك من صناعة الترسل ودواوين الكتابة لا يغنى قليلا ولا كثيرا .

ولم يكن المتنبى كاتبا ولا بصيرا بأساليب الكتابة وصناعتها ووجوهها ، ولا هو عربى فصح من فصحاء البادية وان كان فى حفظ اللغة ما هو ، فليس يمنع سقوط ذلك الكلام الذى نسب إليه من ان تكون نسبته إليه صحيحة لأنه لو اراده فى معارضة القرآن ما جاء بابلغ منه (١) .

٥ - أبو العلاء المعرى ت ٤٤٩ :

اتهم ابو العلاء المعرى بأنه عارض القرآن بكتاب سماه "الفصول والغايات فى مجاراة السور والآيات" وقد قيل له : ما هذا إلا جيد ، غير انه ليس عليه طلاوة القرآن فقال : حتى تصقله الألسن فى المحاريب اربعمائة سنة ، وعندئذانظروا كيف يكون .

---

(١) هامش الكامل ج ٢ / ١١١ وإعجاز القرآن للرافعى ص ١٨٣

وقيل إن من كتابه هذا قوله : "اقسم بخالق الخيل ، والريح الهابة بليل ، بين الشرط مطلع سهيل إن الكافر لطويل الويل وإن العمر لمكفوف الذيل ، تعد مدارج السيل ، وطالع التوبة من قبيل ، تنج وما اخا لك بناج" .

فلفظ "ناج" هي الغاية ، وما قبلها فصل مسجوع ، فيبتدئ بالفصل ثم ينتهي إلى الغاية ، وهكذا كما ترى عكس الفواصل في القرآن الكريم ، لأنها تأتي خواتم لآياته فكأن المعارضة نقض للوضع ومجاراة للموضوع ، وكأنها صنعة وطبع .

ويرى الرافعي أن تلك فرية على المعري اراده بها عدو حاذق ، لأن - الرجل أبصر بنفسه وبطبقة الكلام الذي يعارضه ، وما نراه إلا أعرف الناس باضطراب اسلوبه والتواء مذهبه ، وإن البلاغة لا تكون مراغمة للغة واغتصابا لألفاظها وتوطينا لغرائبها كما يصنع وإن الفصاحة شيء غير صلابة الحنجرة وإفاضة الإملاء ودفع الكلمة في قفا الكلمة حتى يخرج الأسلوب متعثرا يسقط بعضه في جهة وينهض بعضه في جهة ، ويستقيم من ناحية ويلتوي من ناحية ، وإنه عسى أن لا يكون في اضطراب النسق وتوعر اللفظ واستهلاك المعنى وفساد المذهب الكتابي وضعف الطريقة البيانية شر من هذا كله وما أسلوب المعرض إلا من هذا كله .

على أن المعري - رحمه الله - قد اثبت إعجاز القرآن فيما انكره من رسالته على ابن الراوندي ، فقال :
"وأجمع ملحد ومهتدي ، وناكب عن المحجة ومقتدي أن هذا الكتاب الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم كتاب بهر الإعجاز ولقى عدوه بالارجاز ما حذى على مثال ولا اشبه غريب الأمثال ما هو من القصيد الموزون ، ولا في الرجز من سهل وحزون ، ولا شاكل خطابه العرب ولا سجع الكهنة ذوي الارب وإن الآية منه أو بعض الآية لتعترض في أفصح كلم يقدر عليه المخلوقون ، فتكون كالشهاب المتلألئ في جنح غسق ،

هما الأسودان التمر والماء فقال صلى الله عليه وسلم : أما أنه سيكون .

وهذا يدل على إخبار الرسول صلى الله عليه وسلم لما سيحدث لهم في المستقبل وهو معجزة من معجزاته صلى الله عليه وسلم .

٧ - ويزعم الدكتور طه حسين أن وجود سورة في القرآن تسمى سورة الروم دليل على أن العرب لم يكونوا في عزلة سياسية بل هم أصحاب سياسة متصلة بالسياسة العامة قال الله تعالى "الم غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين" (١) كأنه يعني أن هذا التاريخ كان معروفا في أهل السياسة من العرب وفي وزارة قريش .... فأخذه القرآن عنهم (٢) .

ثم رد الرافعي عليه بقوله : إن هذه السورة الكريمة لا تدل على تقدم العرب في السياسة وإنما تدل على إعجاز القرآن حيث أنبأ بانتصار الروم على الفرس بعد هزيمتهم أمامهم وكان ذلك مستقبلا ولن يكون القرآن دليلا على علم العرب إلا إذا كان من صنع محمد صلى الله عليه وسلم .

ثم يزعم الدكتور طه حسين مؤكدا قوله : إن القرآن ببلاغته وفصاحته لا يمكن أن يكون في أمة جاهلة يقول : "وكيف يستطيع رجل عاقل أن يصدق أن القرآن قد ظهر في أمة جاهلة همجية (٣) .

وهذا الزعم يفضحه قول الرسول صلى الله عليه وسلم "إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب" (١) فهل نصدق قول طه حسين

---

(١) الشعر الجاهلي ص ١٣ .

(٢) ، (٣) الشعر الجاهلي ص ٢٣ .

هذا أم نصدق قول الرسول صلى الله عليه وسلم الذى أومانا إليه آنفا .

وحديث الرسول صلى الله عليه وسلم المشار إليه يدل على ان العرب لم تكن أمة متحضرة لأن الحضارة لا تقوم على جهل بالقراءة والكتابة فيقول الرافعى "ومن اين تجيء الحضارة ويأتى العلم وتستقيم السياسة مع جهل الأمة بالكتابة والحساب .

ثم يرى الرافعى أن طه حسين مجموعة اخلاق مضطربة وافكار متناقضة وطباع زائفة وما من عالم فى الأرض إلا وانت واجد آراءه قائمة بمجموع اخلاقه أكثر مما هى آتية من صفاته العقلية ولذلك قال الرسول صلى اله عليه وسلم فى الحديث الصحيح ، "إن اخوف ما اخاف على أمتى كل منافق عليم اللسان" (١) .

وطه حسين قلد أوربا فى لسانه وعقله ، وترك قلبه جانبا ومن أجل هذا يجب أن يكون نفاقه وثرثرته متصورين على نفسه ، ويجب ان تحمى الجامعة طلبتها منه لأنه قد أوتى لسانا فصيحا هو اشد خطرا من غيره كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم فى الحديث الشريف الذى اشرنا إليه .

٨ - يقول الدكتور طه حسين "وهناك شيء بعيد الأثر لو ان

---

(١) اخرجه البخارى فى الصوم باب قول النبى صلى الله عليه وسلم "إذا رأيتم الهلال فصوموا ج ٣ / ٣٤" . مسلم فى الصوم ، باب وجوب صوم رمضان حديث رقم ١٠٨٠ ابو داوود فى الصوم باب الشهر يكون تسعا وعشرين ، ابن ماجة فى الصوم باب صوموا لرؤيته بلفظ "فإن غم عليهم فاقدروا له رقم ١٦٥٤ ، النسائى فى الصوم رقم ٢١٤٢ .

لدينا او لدى غيرنا من الوقت ما يمكننا من استقصائه او تفصيل القول وهوان القرآن الذى على بلغة واحدة ولهجة واحدة هى لغة قريش ولهجتها لم يكد يتناوله القرآن من القبائل المختلفة حتى كثرت قراءاته وتعددت اللهجات فيه وتباينت تباينا كثيراً ... إلى ان قال : إنما نشير إلى اختلاف آخر فى القراءات يقبله العقل ويسبقه النقل وتقتضيه ضرورة اختلاف اللهجات بين قبائل العرب التى لم تستطع أن تغير حناجرها والسنتها وشفاهها لتقرا القرآن كما يتلوه النبى وعشيرته من قريش فقراته كما كانت تتكلم" (١) .

وهذا تصريح منه بان القراءات لم تكن منقولة كلها عن النبى صلى الله عليه وسلم ومعلوم فى اصول الدين ان السبع متواترة وان طريقها الوحى فمنكرها كافر (٢) .

٩ - يقول د . طه حسين "من الذى يستطيع ان ينكر ان كثيرا من القصص القرآنية كان معروفا بعضه عند اليهود وبعضه عند النصارى وبعضه عند العرب انفسهم وكان من اليسير ان يعرفه النبى صلى الله عليه وسلم - تأملوا - كما كان من اليسير ان يعرفه النبى صلى الله عليه وسلم - ثم كان النبى واميه متعاصرين فلم يكن النبى هو الذى اخذ من اميه ولا يكون اميه هو الذى أخذ من النبى" (٣) .

وهذه العبارة ناطقة براى قائلها حتى كانه يقول : إن القرآن لا ينقصه إلا ان يكتب عليه "تاليف فلان" ونعوذ بالله ونتوب إليه ونستغفره (٤) .

١٠ - وزعم د . طه حسين ان القرآن ليس فى حاجة إلى شواهد من الشعر على الفاظه ومعانيها عند العرب "تخالفهم

---

(١) الشعر الجاهلى ص ٣٣ . (٢) تحت راية القرآن ص ١٧٠

(٣) الشعر الجاهلى ص ١٨ . (٤) الشعر الجاهلى ص ٧٦ .

أشد الخلاف لأن أحدا لم ينكر عربية النبي فيما نعرف" (١) .

وكلامه يعني إذا لم ينكر أحد عربية النبي صلى الله عليه وسلم لم ينكر صحة كلامه وهو بهذا ينسب القرآن الكريم إلى أنه من صنع محمد صلى الله عليه وسلم ونعوذ بالله من ذلك ونتوب إليه .

١١ - ثم يقول من علماء الموالي وعلماء العرب "وأرادوا هم - علماء العرب - أو الموالي أو أولئك وهؤلاء أن يدرسوا القرآن درسا لغويا ويثبتوا صحة ألفاظه ومعانيه ، ولأمر ما شعر بالحاجة إلى إثبات أن القرآن كتاب عربي مطابق في ألفاظه للغة العرب فحرصوا على أن يستشهد على كل كلمة من كلمات القرآن بشيء من شعر العرب يثبت أن هذه الكلمة عربية القرآن ولا مطابقة ألفاظه لألفاظ العرب ، ولا هم من شك في العربية ولا من أمرها (٢) .

إن طه حسين يكرر هذا المعنى ويطيل فيه ولا يفهم أن الاستشهاد بالشعر لا يراد منه إثبات عربية القرآن ولا مطابقة ألفاظه لألفاظ العرب ولا هو من شك في العربيةولا من أمرها ، وإنما يراد به اتخاذ القرآن الكريم سببا في جميع مادة اللغة العربية وشواهدها كما أن القرآن الكريم هو السبب في وضع العلوم العربية كلها يقول الرافعي "افترى وضع النحو كان لإثبات أن القرآن ليس فيه من لحن أم كان لإقامة الألسنة الزائغة حتى يسهل عليها الأداء والقراءة .
ثم يراد من تقييد تلك الشواهد وجمعها وتدوينها تفسير كلمات القرآن ليفهمها من يجيئون بعد العرب كما فهمها العرب أنفسهم وظاهر أنه لا سبيل إلى ذلك بالنقل على معاني الكلمات عندهم ولاثقة بهذا النقل أن لم يكن عليه دليل من

---

(١) الشعر الجاهلي ص ١٨ .
(٢) الشعر الجاهلي ص ٧٦ .

شعرهم إذ هو وحده المحفوظ عنهم وهو كان متن اللغة والخبر والإثر ولعمرى لولا صنيع العلماء في جمع هذه الشواهد لقام ألف زنديق يضيفون إلى مطاعنهم فى القرآن أن قيمة خطأ في اللغة فانظر أين هذه الحكمة مما يحفظ فيه استاذ الجامعة" (١) .

إن عربية القرآن لا شك فيها إذ هى ثابتة بنص القرآن نفسه ، فلا حاجة إلى الشعر ليثبت عربية القرآن .

ويقول د . طه حسين إن اليونان يقدسون الإلياذة والأوديسا ويقومون بجمعها وترتيبها وروايتها وإذاعتها عناية المسلمين بالقرآن الكريم (٢)

ولم نفهم شيئا من هذا الكلام لأنه يحتمل كل شيء ولو فسر لنا قوله لفسرنا له وأريناه مبلغ جهله وسوء أدبه .

وأما رأيه فى النبى صلى الله عليه وسلم ، فمن أعجب ما عجبنا له أنه ما من عالم او كاتب مسلم يذكره صلى الله عليه وسلم إلا صلى عليه او وضع رمز الصيغة ولو هذا الحرف (ص) مع أن المسيحين الذين كتبوا عن النبى صلى الله عليه وسلم كانوا يفعلون ذلك مجاملة للمسلمين فلا هو بعقيدة المسلمين اخذ ولا بمجاملة المسيحين اقتدى ومعنى ذلك أنه لم يتأثر بدين ، ويعتبر بنص الحديث النبوى الشريف كافراً حيث يقول النبى صلى الله عليه وسلم ، "رغم عبد ذكرت عنده فلم يصل علي" فضلا عن أنه يكذب الحديث الصحيح ويتهكم به" (٣) .

---

(١) تحت راية القرآن ص ٣١٤ .

(٢) الشعر الجاهلى ص ٩١ .

(٣) تحت راية القرآن ص ٣١٥ بتصرف .

ثم يتهم د . طه حسين النبي صلى الله عليه وسلم بأنه كان يطمع فى ملك ، واخفاه فلم يظهر فى دعوته التى دعا الناس إليها ، يقول "لم يكن يطمع - يعنى النبي صلى الله عليه وسلم - فى ملك ولا تغلب ولا قهر أو لم يكن ذلك فى دعوته" (١) وهذه العبارة يقلد فيها رماة السيارة فى لغتهم العملية التى يجعلون لكل جملة منها بابين ، غير أن طه حسين سد فى عبارته البابين والنافذة أيضا ....

فإن معناها الصريح أن النبي صلى الله عليه وسلم أول أمره لم يكن يطمع فى ملك أو كان يطمع ولكنه كتم ذلك فلم يظهره فى دعوته التى دعا بها الناس إلى الله وأذن على راية فقد كان للدعوة بطـن وظهر ولا تكون إلا إذا كانت من عنده مولا من عند الله (٢) .

وبهذا القول قد انكر النبوة والرسالة وجعل الدعوة وسيلة للملك ولم يتنبه إلى أن النبي صلى الله عليه وسلم قد عرض عليه فى بدء دعوته وهو يعقب الملك والجاه والمال فرفضها جميعا .

ثم يزعم أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يحرص على الهجاء ويؤيده يقول "إن النبي صلى الله عليه وسلم كان يحرص على الهجاء ويؤيد عليه أصحابه ويتحدث أن جبريل كان يؤيد حسانا" (٣) .

وهذا الجهل مما تضيق به الصدور فإن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن به الهجاء ولا الأقذاع وإنما كانت تلك عربيته إضطرته اليها طبيعة العرب لحماية أعراض المسلمين

---

(١) الشعر الجاهلى ص ٤٨

(٢) تحت راية القرآن ص ٣١٦

(٣) الشعر الجاهلى ص ٥٠

فقد كان من هذه السنة عند العرب انه إذا سكت المشتوم صدق الشاتم فجرى كلامه مجرى التاريخ الصحيح .

ثم كانت معارك الألسنة لا يسكت فيها إلا الذليل ، فسكوته ذل ولا يغلب فيها إلا العيى - العاجز - اللسان ففيه ذل آخر .

وكل ذلك من أمر العرب فلم يكن بد من المصير إليه حتى لا يضعف أمر المسلمين ولم يكن جبريل يؤيد حسانا فى الهجاء ولكن فى الكفاح عن نبيه كما ورد فى الحديث "ان الله ليؤيد حسانا ما ينفح أو يفاخر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم" (1) فليس الكفاح معنى الجهاد .

كلمة مؤمنة فى رد كلمة كافرة :

طعن بعض الكتاب فى قوله تعالى "ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب لعلكم تتقون" (2) .

يقول هذا الكاتب بالنص ، قالت العرب قديما فى معنى القصاص "القتل انفى للقتل" ثم إقبل القرآن الكريم على آثار العرب (هكذا) فقال ،
"ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب لعلكم تتقون" وقد مضت سنة العلماء من أساطير البيان لن يفتقدوا الموازنة بين مقالة العرب هذه وبين الآية الكريمة أيتها اشبه بالقصاص (هكذا) ثم يخلصون منها إلى تقديم الآية والبيان القرآنى ...

---

(1) البخارى تعليقا فى الأدب ، باب هجاء المشركين ، أبو داوود فى الأدب ، باب ما جاء فى الشعر - الترمذى فى الأدب ، باب ما جاء فى انشاد الشعر .
(2) البقرة / 179 .

ثم رأى هذا الملحد - تقديم الكلمة العربية على الآية الغراء "اللهم غفرا" على ثلج الصدر باعجاز القرآن ‹ كلمة للوقاية من الشيابة ...وإلا فماذا بقي من الإعجاز وقد عجزت الآية ؟ زه زه يا رجل .

ثم قال : إن فيما تقدم به الكلمة العربية على الآية الحكيمة ‹ اللهم غفرا › مزايا ثلاثا :
أولى : هذه المزايا الثلاث : هذا الإيجاز الساحر فيها ، ذلك أن "القتل انفى للقتل" ثلاث كلمات لا أكثر .

أما الآية فإنها سبع كلمات ‹ كذا › وعلى تلك فهي أقدم عهدا وأسبق ميلادا من آية التنزيل ‹ تأمل › حاشا كلام الله القديم . والإيجاز ميزة أية ميزة .

الميزة الثانية للكلمة الاستقلال الكتابي وفقد التعاقد بينها ، وبين شيء آخر سابق عليها ، حتى أن الممثل المستشهد يبدى بها حديثا مستثما ويختتمه في غير مرابد زلا فضل ، فلا يتوقف ولا يستعين بغيرها .

أما الآية فإنها منسوقة مع ما قبلها بالواو ، فهي متعاقدة مترابطة معه لا يتمثل بها المتمثل حتى تستعين بشيء سواها وليس الذي يعتمد على غيره فلا يشتغل كالذي يعتمد على نفسه فيشتغل (١) .
الميزة الثالثة أن الكلمة ليست متصلة في آخرتها بفصل من القول تغني عنه . على حين تتصل الآية بما تعني عنه من القول ويعقد كالفصل وهو كلمتا " يا أولي الألباب" و "لعلكم تتقون" وإن كان لا زيادة في القرآن ولا فضول .

ثم قال : إن مدرسا جلده بالفصل الذي عقده الإمام

---

(١) وحي القلم ج ٣ / ٣٩٩ .

السيوطى فى كتابه الإتقان لتفضيل الآية على الكلمة ، وفيه قرابة خمسة وعشرين حجة قال انها انحطت بعد أن رماها بنظره العالى إلى أربع :
وأولاها ، أن الآية أوجز لفظا والكاتب يرى الآية ، "سبع كلمات فى تحديد ورقة" قال ، إذا لقد بطلت حجة الإيجاز فى الآية (اللهم غفرا)
والثانية ، إن فى الكلمة العربية تكرارا لكلمة القتل سلمت الآية منه "ورد الكاتب إن هذا التكرار" يتحلل طلاوة ويقطر رقة" قال ، وهذا فمى فيه طعم العسل (قلنا وعليه الذباب ياسيدنا) .
والثالثة ، إن فى الاية ذكرا للقصاص بلفظه ، على حين لا تذكر الكلمة إلا القتل وحده وليس كل قتل قصاصا ودفع الكاتب هذا بأن الكلمة انطوت على قتلين أحدهما ينفى صاحبه ، فذاك هو القصاص ، قال ، إذا فالكلمة والآية فى قصة القصاص يلتقيان فرسى رهان " .
والرابعة ، أن القصاص فى الآية أعم يشمل القتل وغيره وأقر الكاتب أن للآية فضلا عن الكلمة من هذه الناحية ولكن الكلمة حكمة لا شريعة وهى من قضاء الجاهلية فليس عليها أن تبين ما لم يعرفه العرب ولم يخلق بعد ، قال "إذا فليست الكلمة مقصورة عن بيان ، متبلدة عن إحسان "(1) .
ثم انتقد الرافعى هذا الكاتب وقال ، ونحن نستغفر الله ونستعينه ونقول قولنا .

بين يدى المسألة :

قال الرافعى متسائلا ، "من اين للكاتب أن كلمة "القتل انفى للقتل" مما صحت نسبة إلى عرب الجاهلية وكيف له أن يثبت إسنادها إليهم ، وأن يوثق هنا الأستاذ حتى يستقيم قوله إن القرآن أقبل على آثار العرب .

---

(1) وحى القلم ج ٣ / ٤٠٠ .

ثم قرر الرافعي ان هذه الكلمة مولدة وضعت بعد نزول القرآن الكريم وأخذت من الآية ، والتوليد بين فيها ، واثر الصنعة ظاهر عليها فعلى الكاتب ان يدفع هذا بما يثبت أنها مما صح نقله عن الجاهلية .

ولقد جاء ابو تمام بابدع وأبلغ من هذه الكلمة فى قوله ، واخافكم كى تغمدوا أسيافكم — إن الدم المغبر يحرسه الدم والدم يحرسه الدم هذه هى الصناعة وهذه هى البلاغة لا تلك ، ومع هذا فكلمة الشاعر مولدة من الآية ، يدل عليها البيت كله ، وكان ابا تمام لم يكن سمع قولهم : "القتل انفى للقتل" وانا مستيقن ان الكلمة لم تكن وضعت إلى يومئذ .

ولو ان متمثلا اراد ان يتمثل بقول ابى تمام فانتزع منه هذا المثل " الدم يحرسه الدم" أن يكون حتما من الحتم ان يقال له : كلا يا هذا فإن البيت سبع كلمات فلا يصح انتزاع المثل منه ولابد من قراءة البيت بمصراعيه ، كما يقول هذا الكاتب فى الآية ليزعم انها لا تقابل الكلمة العربية فى الإيجاز ؟ .

إن الذى فى معانى الآية القرآنية مما ينظر إلى معنى قولهم القتل انفى للقتل ليس غير وهما "القصاص ، حياة" والمقابلة فى المعانى المتماثلة إنما تكون بالألفاظ التى تؤدى هذه المعانى دون ما تعلقت به أو تعلق بها فما يصل المعنى بغيره أو يصل غيره به إذا الموازنة بين معنيين لا تكون إلا فى صناعة تركيبهما .

ويخيل إلى الكاتب يريد ان يقول إن باقى الآية الكريمة لغو وحشو فهو جميلة على الكلمتين " القصاص حياة" يريد أن يقولها ، ولكنه بمعنى بها ، وإلا فلماذا يلج فى انه لابد فى التمثل أى لابد فى المقابلة من ورود الآية بألفاظها جميعا ؟ .

فإذا قيل ، إنه لا يجوز أن يتغير الإعراب فى الآية ، ويجب أن يكون المثل منتزعا منها على التلاوة .

قلنا فإن ما يقابل الكلمة منها حينئذ هو هذا "فى القصاص حياة " - وجملتها اثنا عشر حرفا ، مع أن الكلمة العربية أربعة عشر ، فالإيجاز عند المقابلة هو فى الآية دون الكلمة" (١)

وأما قوله تعالى "يا اولى الألباب لعلكم تتقون" فلو كان الكاتب من أولى الألباب لفهمها وعرف موقعها وحكمتها وان إعجاز الآية لا يتم إلا بها ، إذ أريد ان تكون معجزة زمنية كما سنتساير إليه ، ولكن انى له وهو من الفن البيانى على هذا البعد السحيق ، لا يعلم أن آيات القرآن كالزمن فى نسقها ، ما فيه من شيء يظهره إلا ومن ورائه سر يحققه .

ثم أن الإيجاز فى الكلمة العربية ليس من "الإيجاز الساحر" كما يضعه الكاتب بل هو عندنا من الإيجاز الساقط ، وليس من قبيل ايجاز الآية الكريمة ولا يتعلق به فضلا ان يشبهه ، إذ لابد فى صيغة التفضيل من تقدير المفضل عليه ، فيكون المعنى "القتل اكثر نفيا للقتل من كذا" فما هو هذا "الكذا" ايها الكاتب المتعثر ؟ .

أليس تصور معنى العبارة وإحضاره فى الذهن قد أسقطها ونزل بها الى الكلام السوقى المبتذل واوقع فيها الاختلال ؟ وهل كانت إلا صناعة شعرية خيالية ملفقة كما أومانا إلى ذلك آنفا ، حتى إذا اجريتها على منهجها من العربية رايتها فى طريقة هذا الكلام العربى الأمريكانى كقول القائل ، "الفرح اعظم من الترح والحياة هى التى تعطى للحياة" .

---

(١) وحى القلم ج ٣ / ٤٠١ .

فهذا الرد الموجز بطلت الميزات الثلاث التى زعمها الكاتب لتلك الكلمة وأن الكلمة نفسها لتبرأ إلى الله من أن تكون لها على الآية ميزة واحدة فضلا عن ثلاث . ولنفرض فرضا : إن الكلمة وثيقة الإسناد إلى عرب الجاهلية وأنها من بيانهم فما الذى فيها :

١ - إنها تشبه قول من يقول : إن قتلت خصمك لم يقتلك ، وهل هذا إلا هذا . وهل هو إلا بسلاغة من الهذيان ؟

٢ - إنها تشبه أن تكون لغة قاطع طريق عارم يتوثب على الحلال والحرام لا يخرج فى لسانه إلا مفرزا فى نفسه إنه إما قاتل أو مقتول ولذلك تكرر فيها القتل على طريقتها فهو من أشنع التكرار وأفظعه ؟ .

٣ - أن فيها الجهل والظلم والهمجية ، إذ كان من شان العرب الا تسلم القبيلة العزيزة قاتلا منها ، بل تحميه وتمنعه ، فتنقلب القبيلة كلها قاتلة بهذه العصبية فمن ثم لا ينفى عار القتل عن قبيلة المقتول إلا الحرب والاستئصال قتلا قتلا وأكل الحياة للحياة ، فهذا من معانى الكلمة ، اى القتل انفى لعار القتل ، فلا قصاص ولا قضاء كما يزعم الكاتب .

٤ - إن القتل فى هذه الكلمة لا يمكن أن يخصص بمعنى القصاص إلا إذا خصصته الآية فيجىء مقترنا بها فهو متقصر إليها فى هذا المعنى وهى تلبسه - الإنسانية كما ترى ولن يدخله العقل إلا من معانيها ، وهذا وحده إعجاز فى الآية وعجز من الكلمة .

وجوه اعجاز فى الآية الكريمة :

أشار الرافعى إلى وجوه الإعجاز فى الآية الكريمة واستخراج أسرارها وتتلخص تلك الوجوه فيما يلى :

١ - بدا الآية يقول "ولكم" وهذا قيد يجعل هذه الآية خاصة للإنسانية المؤمنة التي تطلب كمالها في الإيمان ، وتلتمس في كمالها نظام النفس بنظام الحياة فإذا لم يكن هذا متحققا في الناس فلا حياة في القصاص ، بل تصلح حينئذ كلمة الهمجية : القتل انفى للقتل ، اى تقتلوا اعدائكم ولا تدعوا منهم احدا ، فهذا هو الذى يبقيكم احياء وينفى عنكم القتل فالآية الكريمة بدلالة كلمتها الأولى موجهة إلى الانسانية في بعض معانيها إلى حقيقة من حقائق الحياة .

٢ - قال : "في القصاص" ولم يقل في القتل فقيدة بهذه الصيغة التي تدل على انه جزاء ومؤخذة فلا يمكن أن يكون منه المبادأة بالعدوان ولان يكون منه ما يخرج عن قدرة المجازاة كل أو اكثر .

٣ - تفيد هذه الكلمة "القصاص" بصيغتها "صيغة المفاعلة" ما يشعر بوجوب التحقيق وتمكين القاتل من المنازعة والدفاع والا يكون قصاص إلا باستحقاق وعدل ولذا لم يات بالكلمة من اقتضى مع أنها اكثر استعمالا ، لأن الاقتصاص شريعة الفرد والقصاص شريعة المجتمع .

٤ - من إعجاز لفظة القصاص هذه ان الله تعالى سمى بها قتل القاتل ، فلم يسمه قتلا كما فعلت الكلمة العربية لأن احد القتلين هو جريمة ، فنزه سبحانه العدل الشرعي حتى عن شبهه بلفظ الجريمة ، وهذا منتهى السمو الأدبي في التعبير .

٥ - ومن إعجاز هذه اللفظة انها باختيارها دون كلمة القتل تشير إلى انه سياتي في عصور الإنسانية العالمة المتحضرة عصر لا يرى فيه قتل القاتل بجانبيه إلا شرا من قتل المقتول لأن المقتول يهلك بأسباب كثيرة مختلفة على حين أن اخذ القاتل لقتله ليس إلا نية قتله فغيرت الآية باللغة التي تلائم هذا العصر القانوني الفلسفي وجاءت بالكلمة التي لن يجد في

هذه اللغة ما يجزى عنها فى الاتساع لكل ما يراد بها من فلسفة العقوبة .

٦ - ومن إعجاز هذه اللفظة انها كذلك تحمل كل ضروب القصاص من القتل فما دونه وعجيب أن تكون بهذا الاطلاق مع تقييدها بالقيود التى مرت بك فهى بذلك لغة شريعة إلهية على الحقيقة ، فى حين أن كلمة القتل فى المثل العربى تنطق فى صراحة انها لغة الغريزة البشرية باقبح معانيها ، ولذلك كان تكرارها فى المثل كتكرار الفلفلة فالآية بلفظ «القصاص» تضعك أمام الألوهية بعدلها وكمالها ، والمثل بلفظة « القتل » يضعك أمام البشرية بنقصها وظلمها .

٧ - ولا تنسى ان التعبير بالقصاص تعبير يدع الإنسانية محلها إذا هى تخلصت من وحشيتها الأولى وجاهليتها القديمة فيشمل القصاص اخذ الدية والعفو وغيرهما ، أما المثل فليس فيه إلا حالة واحدة بعينها كانه وحش ليس من طبعه إلا ان يفترس .

٨ - جاءت لفظة القصاص معرفة باداة التعريف لتدل على انه مقيد بقيوده الكثيرة إذ هو فى الحقيقة قوة من القوى والتدمير الإنسانية فلا تصلح الإنسانية بغير تقيدها .

٩ - جاءت كلمة "حياة" منونة ، لتدل على ان ها هنا ليست حياة بعينها مقيدة باصلاح معين ، فقد يكون فى القصاص حياة اجتماعية ، وقد يكون فيه حياة سياسية ، وقد تكون الحياة ادبية وقد تعظم فى بعض الأحوال من أن تكون حياة .

١٠ - إن لفظ "حياة" هو فى حقيقته الفلسفية اعم من التعبير «ينفى القتل » لأنه نفى القتل إنما هو حياة واحدة أى ترك الروح فى الجسم فلا يحتمل شيئا من المعانى السامية وليس فيه غير هذا المعنى الطبيعى الساذج وتعبير الكلمة

العربية عن الحياة « ينفى القتل » تعبير غليظ تمامى يدل على جهل مطبق لا محل فيه لعلم ولا تفكير كالذى يقول لك : إن الحرارة هى نفى البرودة .

١١ - جعل نتيجة القتل حياة تعبير من أعجب ما فى الشعر يسمو إلى الغاية من الخيال ولكن اعجب ما فيه انه ليس خيالا بل يتحول إلى تعبير علمى يسمو إلى الغاية من الدقة كانه يقول بلسان العلم فى نوع من سلب الحياة نوع من ايجاب الحياة .

١٢ - فإذا تاملت ما تقدم وأمعنت فيه تحققت أن الآية الكريمة لا يتم إعجازها إلا بما تمت به من قوله "يا اولى الألباب" فهذا نداء عجيب يسجد له من يفهمه إذ هو موجه للعرب فى ظاهره على قدر ما بلغوا من معانى اللب ولكن فى حقيقته موجه لإقامة البرهان على طائفة من فلاسفة القانون والاجتماع هم هؤلاء الذين يرون إجرام المجرم شذوذاً فى الترتيب العصبى او وراثة محتومة لا حالة نفسية قاهرة إلى ما يجرى هذا المجرى فمن ثم يرون أن لا عقاب على جريمة لأن المجرم منها مريض له كلمة المرض وهذه فلسفة تحملها الأدمغة والكتب ، وهى تحول القلب إلى مصلحة الفرد وتصرفه عن مصلحة المجتمع ، فنبههم الله إلى الباب دون عقولهم كانه يقرر لهم ان حقيقة العلم ليست بالعقل والراى بل هى قبل ذلك باللب والبصيرة وفلسفة اللب هذه فى آخر ما انتهت إليه فلسفة الدنيا .

١٣ - وانتهت الآية بقوله تعالى "لعلكم تتقون" وهى كلمة من لغة كل زمن ، ومعناها فى زمننا نحن : اولى الألباب انه برهان الحياة فى حكمة القصاص نسوقه لكم ، لعلكم تتقون على الحياة الاجتماعية ما فيه خلافه فاجعلوا وجهتكم إلى وقاية المجتمع لا إلى وقاية الفرد .

وبعد فإذا كان في الآية الكريمة - على ما رأيت - ثلاثة عشر وجهاً من وجوه البيان المعجز فمعنى ذلك من ناحية أخرى أنها أسقطت الكلمة العربية ثلاث عشرة مرة .

ميراث البنت في الإسلام :

ميراث البنت فى الإسلام جعله على النصف من الرجل ولم يقصد لذاته لأنه مرتب على نظام الزواج وفى هذا معادلة ،

فهى تاخذ من جهة وتترك من جهة أخرى فإن كانت هى تركت بعض المال من جهة فقد أوجب لها الإسلام ما يقابل هذا الترك فاوجب لها المهر والنفقة وحقها فى مال زوجها وليس للرجل مثل هذا الحق من مال الزوجة .

على العكس من ذلك الرجل فليس له أن يجبرها على مشاركتها فى مالها او إنفاقها على الأسرة فهى كعملية الطرح - الأخذ منها - والجمع - اى القسم لها لتحقق المساواة الحقيقية .

* إذا تساوت المراة بالرجل فى الميراث مع هذه الميزة التى انفردت بها انعدمت المساواة فى الحقيقة ويصير الرجل اقل درجة منها .

* ولو عكس الأمر لأوجبنا على المراة ان تنفق على الرجل وان تدفع له المهر بكل زواج كل الفقيرات ، وهن معظم النساء وترتب على ذلك الزواج غير الموفق وإيجاد اللقطاء فى الشوارع وعم الفساد .

* والحكمة الثانية من ميراث المراة فى الإسلام هى أن المراة لا تدع نصف حقها فى الميراث لأخيها ليفضلها به إلا لتعين بهذا العمل فى بناء اجتماعى ، إذ تترك ما تتركه على انه لامراة اخرى هى زوج أخيها فتكون قد اعانت اخاها على القيام بواجبه نحو الأمة .

فالحكمة ، مسالة ميراث البنت فتخلق له فى مسائل كثيرة

ليست منفردة بنفسها مما تشمئز لها النفس قول المحاضر لو كانت الفتيات يرثن مثل إخوتهن الذكور لكان فى ثروتهن إغراء للشياعة على الزواج .

ويقول الرافعى ردا على هذا القول لن الإسلام لا يعرف مثل هذا الاسفاف فى الخلق ولا يقره بل يهدمه هدما ويوجب على كل رجل أن يتحمل المسئولية كاملة تجاه الأسرة مادام مطيقا وقادرا كره أو رضى .

(١) وحى القلم ج ٣ / ٣٩٣ و ٣٩٦ بتصرف .

الخاتمــــة

تناولت فيما سبق إعجاز القرآن الكريم فى فكر الرافعى .. وقسمت البحث إلى ما بين :

الباب الأول : التحدى وثبوت العجز عن المعارضة :

أولا : التحدى : جاء القرآن الكريم أفصح كلاما وأبلغ أسلوبا وشعر العرب بالعجز والاضطراب وهم أرباب الفصاحة .. وتحداهم الله تبارك وتعالى ذكره أن يأتوا بحديث مثله ، أو بعشر سور من مثله أو بسورة من مثله ثم قطع لهم أنهم لن يفعلوا ذلك « وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهدائكم من دون الله إن كنتم صادقين فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين » البقرة ٢٣

وتتلخص حكمة هذا التحدى وذكره فى القرآن فيما يلى : شهادة التاريخ فى كل عصر يعجز العرب عنه - حفظ اللغة العربية نتيجة البحث والنظر فى أساليب القرآن الكريم - وضع الأساس الدستورى الحر وذلك بإقرار مبدأ المعارضة .

ثانيا : ثبوت العجز عن معارضة القرآن : وهناك عدة أسباب اختص بها القرآن وقطعت العرب عن تلك المعارضة وهى :

أ) الفصاحة : والدليل على فصاحة القرآن تأثيره فى نفوس البشر جميعا مؤمنهم وكافرهم .

ب) أسلوب القرآن يمثل الكمال اللغوى والفطرة اللغوية ويبدو ذلك فى عدة أمور :

- بلاغة أسلوبه ، وسلامة تركيبه ، وإحكامه دقيقه وجليله .
- وسمو حفظه وأخذه منافذ الصنعة كلها .

- واحتوائه الكمال الفنى الذى اثر فى النفوس ، بحيث يشعر به الناس وجدانا ولا يقدرون على إظهاره بيانا .

ج) التحدى ممتد إلى جميع العصور وشامل للسور القصار والطوال ، ولأنه ليس وضعا إنسانيا البته " ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا" النساء / ٨٢ .

د) ومن مميزات الأسلوب القرآنى ايضا ، السهولة والرهبة التى تتمثل فى الروح التى تسرى فى أساليبه .

ه) اللين والمطاوعة فى التفسير ، فهو يفسر فى كل عصر بنقص فى المعنى او زيادة فيه .

٢ - نظم القرآن :

لهذا النظم جهات ثلاث ، فى الحروف والكلمات والجمل ،

أولا ، الحروف ، إذا امعنا النظر فى الحروف القرآنية فإننا نجدها قد ائتلفت كأنها قطعة واحدة لها اعظم الأثر فى توفير الجمال الموسيقى للفواصل القرآنية .

ثانيا ، الكلمات وحروفها ، إن القرآن الكريم كلماته منسجمة نتيجة الترابط بين الكلمات والمعانى بطريقة صادقة ، بحيث تكون الكلمة كأنها خطوة للمعنى فى سبيله إلى النفس ، وهذا ما أطلق عليه الرافعى "صوت النفس" هذا إلى ان الكلمات القرآنية قد جاءت على قدر (المعانى) إلى جانب الإبداع فى تلوين الخطاب ومجاذبته النفس مرة ومداعبتها أخرى ،
" صوت الحس" ولهذا فإنه من المستحيل ان يقع فى التركيب القرآنى كلمات زائدة ، او حرف مضطرب .

ثالثا ، الألفاظ القرآنية ، لقد صارت ألفاظ القرآن بطريقة استعمالها ووجه تركيبها كأنها فوق اللغة وهذه الألفاظ تمتاز بما يأتى ،

أ ، ائتلاف اللفظة مع أصوات الحروف ومثل لذلك بقوله تعالى "ولقد أنذرهم بطشتنا فتماروا بالنذر" القمر / ٤٤

ب ، الألفاظ الطوال فى القرآن مثل قوله تعالى "ليستخلفهم فى الأرض" النور /٥٥ وقوله "فسيكفيكهم الله" هود / ٣٨ وقد خرجت فى نظمه مخرجا سويا فكانت من أكثر الألفاظ حلاوة وأعذبها منطلقا وأخفها تركيبا .

ج ، الألفاظ الفردة والمجموعة من ذلك لفظ "اللب" و "الكوب" وكعكس ذلك لفظة الأرض فإنها لم ترد فيه مفردة ..

د ، الألفاظ الغريبة : المقصود بها التى تكون حسنة مستغربة فى التأويل بحيث لا يتساوى فى العلم بها أهلها وسائر الناس ...

ه ، الكلمات التى يظن أنها زائدة : ورأى الرافعى أنه لا يوجد فى القرآن حرف واحد إلا ومعه رأى يسنح فى البلاغة من جهة نظمه أو دلالته أو أوجه اختياره .

و ، الألفاظ المعبرة : عد العلماء فى القرآن من غير لغات العرب أكثر من مائة لفظة وهى كلمات أخرجها العرب على أوزان لغتها وأجرتها فى فصيحها فصارت بذلك عربية وإنما وردت فى القرآن لأنه لا يسد مسدها إلا أن توضع لمعانيها ألفاظ جيدة وقال بعض العلماء : إن بلاغتها فى نفسها : أنه لا يوجد غيرها يغنى عنها .

ز ، الأسماء الجامدة : إن إعجازها أبلغ ما يكون فى نظمها تأمل قوله تعالى "فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات" الأعراف / ١٣٣ .

٣ - غرابة أوضاعه التركيبية :

إذا أمعنت النظر فى تركيب القرآن لا ترى كيفما أخذت عينك منه إلا وضعا غريبا فى تأليف الكلمات ، وفى مساق العبارة وقد اعترف البلغاء بغرابة أسلوبه وعجزهم عن التطلع

إلى الإتيان بمثله لأنهم يعلمون أن تركيب القرآن أشبه شيء بالتوقيف الألهي ومهما ترددت قراءة القرآن وألفه الناس في كل عصر يبقى إعجازه لهم وقد سماه الرافعي بالمعجم التركيبي لأنه أصل فنون البلاغة كلها .

٤ - إحكام السياسة المنطقية على طريقة البلاغة لا على طريقة المنطق :

فإن الطريقة المنطقية يراد بها إلزام المخاطب ليحقق المعنى الذي قام به الخطاب إلزاما بالعقل لا بالشعور بيد أن طريقة البلاغة إنما يراد بها تحقيق المعنى وأخذ الوجوه والمذاهب عن النفس .. الطريقة الأولى إذن للعقل دون الشعور أما الثانية فإنها تبنى بالمعنى والأسلوب فهي للعقل والشعور معا .

٥ - الإعجاز اللغوي :

كان من إعجاز القرآن أن أفحمهم بأفصح ما تنتهي إليه لغات العرب جميعا وإنما سبيل ذلك من قريش لأن القرآن لو نزل بغير اللغة التي ألفها النبي صلى الله عليه وسلم وما اتصل بها كان ذلك مغمزا فيه إذ لا تستقيم لهم المقابلة حينئذ بين القرآن وأساليبهم .

ومن إعجاز القرآن اللغوي نزوله على سبعة أحرف وإنما جعلها سبعا رمزا إلى ما ألفوه من معنى الكمال في هذا العدد ورأى أن المراد بالأحرف السبعة سبع لغات ومن مظاهر الإعجاز اللغوي :

أ - تصفية اللغة العربية من أكدارها .
ب - جمع لهجات العرب كلها على لهجة قريش .
ج - إقامة أدائها على الوجه الأكمل .
د - الجنسية العربية .

٦ - الإعجاز العلمي :

يرى الرافعي أن في ذكر الآيات الكونية والعلمية في القرآن دليلا على إعجازه وساق مثلا لذلك بقوله تعالى "ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم انشأناه خلقا آخر فتبارك الله احسن الخالقين" المؤمنون ١٣ - ١٤ .

٧ - الإعجاز الأدبي التشريعي :

أن آداب القرآن إنما هي آداب الإنسانية المحضة وان خير الأمم على الإطلاق إنما هي الأمة التي تنبسط في مناحي الاجتماع على الخلق الثابت الذي يرجع في أساسه إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

٨ - القول بالصرفة :

اشار الرافعي إلى ان شيطان المتكلمين إبراهيم بن سيار النظام وانه اول من قال بأن الله صرف العرب عن معارضة القرآن وأن الناس انشغلوا بذلك وانصرفوا عن دراسة القرآن وهو معهم وصار مثلهم كمن يبحث عن الماء والماء من حوله .

الباب الثاني : إفتراءات بعض البشر على القرآن ورد الرافعي عليها:

أ) نماذج من القديم : اورد الرافعي على ثبوت العجز عن معارضة القرآن تلك الشبهة هي ان بعض العرب قد عارضوا القرآن حيث يقول "على ان التاريخ لا يخلو من اسماء قوم قد زعموا أنهم عارضوا القرآن ومن هؤلاء : مسيلمه الكذاب وابن الراوندى والمتنبى وابو العلاء المعرى .

ب) نماذج من العصر الحديث :

أولا : افتراءات الدكتور طه حسين :

انكر الدكتور طه حسين قصة سيدنا إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام وهو بذلك يكذب القرآن الكريم . يقول الرافعي : فانظر هذه الوقاحة فى قوله "وللقرآن ان يحدثنا" كأنه زعم زاعم له ان يقول وان لا يقول وإذا لم يكف النص فى كتاب سماوى تدين له الأمة كلها لاثبات وجود المنصوص عليه فما بقى معنى لتصديقه وما بقى إلا ان يكون القرآن كما يزعم المستشرقون كلا ما من كلام النبى صلى الله عليه وسلم كما نقل هذا الخرف المسمى كليمان هوار وعلى هذا فإنه مثل كفار مكة الذين قالوا "أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا" الفرقان / ٥ .

وقول الدكتور طه حسين بانها خيالية وانها اتت لإثبات الصلة بين العرب وإبراهيم وإسماعيل مردود عليه بان العرب كانوا ضد اليهود. ولا يعتبرونهم معهم فكيف يتقربون إليهم ويثبتون الصلة بهم .

ثم يتساءل الرافعي عن كيفية دخول هذه الأسطورة إلى القرآن والعرب يعلمون .

ان اليهود اهل كتاب لا يقبلون منهم أن يضعوا لهم التاريخ .

ويقول طه حسين "وقد كانت قريش مستعدة كل الاستعداد لقبول مثل هذه الهجرة المذكورة فى القرن السابع للمسيح إذا فليس ما يمنع قريشا من أن تقبل هذه الأسطورة التى تفيد أن الكعبة من تأسيس إسماعيل وإبراهيم كما قبلت روما من قبل ذلك ولأسباب مشابهة اسطورة اخرى صنعها لها اليونان تثبت أن روما متصلة بايناس بن بريام صاحب طروادة" ورد الرافعى على ذلك يقول : إن هذا تكذيب صريح للقرآن "وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل" البقرة / ١٢٧ إلى آيات اخرى كثيرة .. وهو فوق تكذيبه للقرآن يقول أن فيه تدليسا لأسباب سياسية ودينية من أجلها اختلق هذه الأخبار وهذا كفر فاحش يثيره طه حسين فى عقول الطلبة لأنه يزعم أن القرآن لا يوثق باخباره ولا بما فيه من التاريخ .

* ثم يزعم طه حسين أن المسلمين يردون دينهم إلى ملة إبراهيم وهذا يعنى فى نظره أن هذا من صنع المسلمين مع أنه وارد فى القرآن الكريم مثل قوله تعالى "ملة ابيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفى هذا ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على الناس" الحج / ٧٨ .
* ويستمر الدكتور طه حسين فى تشككه فيرى أنه لم يفهم معنى "الحنيفة" وقد تكررت تلك اللفظة فى الحديث الشريف وفى القرآن مثل "ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين" الأنعام / ١٦١ إلى آيات كثيرة كلها نص قاطع فى أن معنى الحنيف إنما هو الذى مال عن الشرك والتشبيه والتجسيد والحنف فى اللغة الميل وكان العرب يقولون : فى كل من تعبد واعتزل الأوثان : أنه تحنف وكل من حج واستقبل البيت سموه حنيفا ثم توسع الإسلام فى الكلمة فالمعنى الصحيح للحنيفة أنها الشريعة النقية التى لا شوب فيها من الإلحاد والشرك وانظر كيف يقول الله « ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما » آل عمران / ٦٧ ثم يزعم طه

حسين أن قصة إبراهيم صلة فى إثبات الصلة بين اليهود والعرب وبين الإسلام واليهودية وبين التوراة والقرآن فهل فى الجهل أوسع من هذا ؟ إلى غير ذلك من افترامات الدكتور طه حسين والتى نفذها الرافعى واكتفيت منها بتلك الإشارة .

ثانيا :

كلمة مؤمنة فى رد كلمة كافرة وتتناول تلك الكلمة آية القصاص « ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب لعلكم تتقون » البقرة / ١٧٩ وأنها تفضل قول العرب "القتل أنفى للقتل" .

ثالثا :

ميراث البنت : إن البنت تأخذ من جهة وتترك من جهة أخرى فإن هى تركت بعض المال من جهة فقد أوجب لها الإسلام ما يقابل هذا الترك فأوجب لها المهر والنفقة وحقها فى مال زوجها كما أن المرأة لا تدع نصف حقها فى الميراث إلا لتعين بهذا العمل فى البناء الاجتماعى إذ تترك ما تتركه على أنه لامرأة أخرى هى زوج أخيها فتكون قد أعانت أخاها على القيام بواجبه نحو الأمة قال الله تعالى "يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين" النساء / ١١ .

وبذلك يبطل قول من زعم أن المرأة لو تساوت مع أخيها فى الميراث ليساعدها ذلك على سرعة الزواج لأنها بنصيبها المفروض لها فى القرآن قد أسهمت إسهاما كبيرا فى البناء الاجتماعى ثم إنها لم تتحمل المسئولية كاملة كما يحملها الرجل .

الفـــهـــارس

- مراجع الدراسة .
- فهرس الآيات القرآنية الكريمة .
- فهرس الأحاديث النبوية الشريفة .
- فهرس الموضوعات .

مراجع الدراسة

اولا :- أحكام القرآن وعلومه

١ - إعجاز القرآن
للباقلانى ، ابى محمد بن الطيب ٤٠٣ ه تحقيق السيد احمد صقر ، الطبعة الخامسة .

٢ - إعجاز القرآن . للرافعى الطبعة الثامنة والثانية .

٣ - بيان إعجاز القرآن .
لأبى سليمان حمد بن ابراهيم الخطابى د منشور ضمنى
« ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن . د. محمد زغلول سلام
- دار المعارف .

٤ - البرهان فى علوم القرآن .
للإمام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشى تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم ، مكتبة دار التراث .

٥ - تفسير القرآن العظيم .
للحافظ ابن كثير ، أبى الفداء ، اسماعيل عماد الدين بن محمد القرشى ت ٧٧٤ ه طبعة الحلبى ١٣٧٦ ه .

٦ - الإتقان فى علوم القرآن .
للإمام جلال الدين السيوطى الشافعى وبهامشه إعجاز القرآن للباقلانى .

٧ - جامع البيان عن تاويل آى القرآن
لأبى جعفر محمد بن جرير الطبرى ت ٢٢٤ ه - ٣١٠ ه
دار المعارف الطبعة الثانية سنة ١٩٦٩ .

٨ - الجامع لاحكام القرآن .
لأبى عبد الله محمد بن أحمد الأنصارى القرطبى ت ٦٧١ هـ
دار الكتاب العربى ١٣٧٨ / ١٩٦٧ .

٩ - قرة العيون النواظر فى الوجوه والنظائر .
لابن الجوزى .

١٠ - معترك الأقران فى إعجاز القرآن للسيوطى .

١١ - مناهل العرفان فى علوم القرآن .
للشيخ محمد عبد العظيم الزرقانى .

١٢ - نكت الانتصار لنقل علوم القرآن .
للباقلانى تحقيق د/محمد زغلول سلام .

١٣ - النكت فى إعجاز القرآن
للرمانى ، ضمن ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن .
د/محمد زغلول سلام - دار المعارف .

ثانيا : الحديث النبوى الشريف

١٤ - سنن الدارمى .
للحافظ أبى محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن الدارمى
ت ٢٥٥ هـ . - تحقيق السيد عبد الله هاشم يمانى
المدنى ١٣٨٦ هـ - ١٩٦٦ م

١٥ - سنن أبى داود .
للإمام الحافظ ابو داود ، سليمان بن الأشعث بن اسحاق
الازدى السجستانى .

١٦ - سنن ابن ماجه .
للحافظ أبي عبد الله محمد بن يزيد ابن ماجه ٢٠٧ ﻫ - ٢٧٥ﻫ تحقيق / محمد فؤاد عبد الباقي .

١٧ - صحيح البخارى .
لأبى عبد الله محمد بن اسماعيل بن ابراهيم بن المغيرة بن بردزبه البخارى الجعفى ت ٢٥٦ ﻫ دار ومطابع الشعب .

١٨ - صحيح مسلم .
للإمام أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيرى النيسابورى ت نيسابورى سنة إحدى وستين ومائتين بشرح النووى المطبعة المصرية .

١٩ - فتح البارى بشرح صحيح البخارى .
للحافظ احمد بن على بن حجر العسقلانى ، رقمه وكتبه وابوابه / محمد فؤاد عبد الباقى القاهرة ١٣٨٠ ﻫ .

٢٠ - كشف الخفا ومزيل الالباس عما اشتهر من الأحاديث على السنة العوام . للشيخ اسماعيل العجلونى ، تصحيح احمد القلاشى ، مكتبة التراث الإسلامى بحلب .

٢١ - مجمع الزوائد ومنبع الفوائد .
للهيثمى وهو الحافظ نور الدين .

٢٢ - مسند الإمام احمد بن حنبل .
وبهامشه منتخب كنز العمال فى سنن الأقوال والأفعال ﻫ بيروت .

٢٣ - المسند للإمام احمد بن حنبل ، تحقيق الشيخ احمد محمد شاكر دار المعارف بمصر ١٣٦٩ ﻫ - ١٩٥٠ م

ثالثا : كتب الفقه العام والبحوث الإسلامية واللغوية :

٢٤ - أثر القرآن فى النقد الأدبى إلى آخر القرن الرابع الهجرى . د/محمد زغلول سلام - الطبعة الثالثة ، دار المعارف .

٢٥ - أصول الفقه للشيخ محمد أبو زهرة .

٢٦ - تحت راية القرآن للرافعى « مصطفى صادق »

٢٧ - دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجانى ت ٤٧١ أو سنة ٤٧٤ هـ تحقيق محمود محمد شـــاكر .

٢٨ - رسائل الجاحظ للسندوبى .

٢٩ - رسالة التوحيد للشيخ محمد عبده .

٣٠ - الشعر الجاهلى د/طه حسين .

٣١ - الفصول والغايات للمعـرى تحقيق محمد طه زناتى .

٣٢ - الفرق بين الفرق لعبـد القاهـر بن طاهـر بن محمد البغـدادى المتوفى فى عـام ٤٢٩ هـ ١٠٣٧ م بيروت الطبعة الأولـى ١٤٠٥ ١٩٨٥ م

٣٣ - الملل والنحل للشهرستانى .

٣٤ - وحى القلم للرافعى « مصطفى صادق »

٥ – الإسلام والطب الحديث
للدكتور عبد العزيز اسماعيل .

فهرس الآيات القرآنية الكريمة

الآيـــة	رقمـــها	الصفحة
١ - الفاتحـــة		
اهدنا الصراط المستقيم	٥	٦٨
٢ - سورة البقرة		
اولئك على هدى من ربهم	٣	٦٨
يخادعون الله والذين آمنوا	٩	١٣١
وان كنتم فى ريب مما نزلن على عبدنا	٢٣	٥
وإذ قال ربك للملائكة	٣٠	٦٦
إن هدى الله هو الهدى	١٣٠	٦٨
وإذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت	١٣٧	١٥٣
فسيكفيكهم الله	١٣٧	٥٧
من البينات والهدى	١٥٩	٦٨
ولكم فى القصاص حياة	١٧٩	١٦٦
هن لباس لكم وأنتم لباس لهن	١٨٧	٧٥
٣ - سورة آل عمران		
ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا	٦٧-٦٨	١٥٥-١٥٦
كنتم خير أمة أخرجت للناس	١١٠	١١٦
فبما رحمة من الله لنت لهم	١٥٩	٦٤
لآيات لأولى الألباب	١٩٠	٥٨
٤ - سورة النساء		
فإن كن نساء فوق اثنتين ...	١١	٦٦
ولو كنتم فى بروج مشيدة	٧٨	٧٠
افلا يتدبرون القرآن	٨٣	٢٣-٣٣-٣٤-١٤٠

٥ - سورة المائدة

يا أيها الرسول بلغ ما انزل إليك من ربك . ٦٧ ١٤٧

٦ - سورة الأنعام

ومنهم من يستمع إليك ٢٥ ٧

فمن أبصر فلنفسه . ١٠٤ ١٠٥

٧ - سورة الأعراف

وأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل ١٣٣ ٧٣

٨ - سورة الأنفال

فاضربوا فوق الأعناق ١٢ ٦٦

لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأولين . ٣١ ٩

٩ - سورة التوبة

هو الذى ارسل رسوله بالهدى ٣٣ ٦٨

١٠ - سورة يونس

قل فاتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم ٣٨ ٥

يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم . ٥٧ ١٣٤

١١ - سورة هود

لم يقولون افتراه قل فاتوا بعشر سور مثله مفتريات .	١٣-١٤	٥
قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك .	٤٨	٥٧
لرجمناك .	٩١	٧١

١٢ - سورة يوسف

لا يهدى كيد الخائنين .	٥٢	٦٩
فلما ان جاء البشير القاه على وجهه	٩٥	٦٤

١٣ - سورة الرعد

ولكل قوم هاد .	٧	٦٦ و ٦٨

١٤ - سورة إبراهيم

وما ارسلنا من رسول إلا بلسان قومه	٤	٦٧

١٥ - سورة الحجر

إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون	٩	١٤٦
وما نزله إلا بقدر معلوم .	٢١	١٠٣

١٦ - سورة النحل

وما انزلنا عليك الكتاب إلا لتبين للناس	٦٤	١٣٢
احدهما ابكم .	٧٦	٧٠
قل نزله روح القدس من ربك بالحق	١٠٢	٦

١٧ - سورة الإسراء

وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه	٣٨-٣٣	٩٥
قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله	٨٨	٣٤-٣٣-١٣٣-٩٩-٦
جاءهم الهدى	٩٤	٦٨
عميا وبكما وصما	٩٧	٧٠

١٨ - سورة الكهف

وزدناهم هدى	١٣	٦٨
رجما بالغيب	٢٢	٧١

١٩ - سورة مريم

وحنانا من لدنا	١٣	٧١
وتنذر به قوما لدا	٩٧	٩

٢٠ - سورة طه

ثم هدى	٥٠	٦٩
فاما يأتينكم من هدى	١٢٣	٦٩

٢١ - سورة الحج

وأذن فى الناس بالحج	٢٧	١٥٣
ولله عاقبة الأمور	٤١	١٠١
ملة إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل	٧٨	١٥٥

٢٢ - سورة المؤمنون

الآية	رقمها	الصفحة
بل قلوبهم فى غمرة من هذا ولهم اعمال من دون ذلك	٦٣	١٣١
فتبارك الله	١٤	١١١

٢٣ - سورة النور

الآية	رقمها	الصفحة
ظلمات بعضها فوق بعض	٤٠	١٤٨
ليستخلفنهم فى الأرض	٥٥	٥٧

٢٤ - سورة الفرقان

الآية	رقمها	الصفحة
وقال الذين كفروا ان هذا الا إفك افتراه	٥-٤	١٥٦-١٥٣
وقال الظالمون إن تتبعوا رجلا مسحورا	٨	٧

٢٥ - سورة الشعراء

الآية	رقمها	الصفحة
وإنه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين	١٩٥-١٩٣	٦

٢٦ - سورة النمل

الآية	رقمها	الصفحة
وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم	٦	١١

٢٧ - سورة القصص

الآية	رقمها	الصفحة
ما هذا إلا سحر مفترى	٣٦	١٣٤-١٣٣-٩

وقال فرعون يا أيها الملأ	٣٨	٦٠
قل فاتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما	٤٩–٥٠	٤

٢٨ - سورة الروم

ظهر الفساد فى البر والبحر	٤١	٧٠

٢٩ - سورة الأحزاب

وإذا زاغت الأبصار	١٠	٧١

٣٠ - سورة يـس

وما علمناه الشعر وما ينبغى له	٦٩	١٣٤

٣١ - الصافات

إننا لتاركو آلهتنا	٣٦	٧
اتدعون بعلا	١٢٥	٦٣
فكان من المدحضين	١٤١	٥٤

٣٢ - سورة ص

إن فى ذلك لذكرى لأولى الألباب	٤٣	٥٨

٣٣ - سورة الزمر

الله نزل احسن الحديث كتابا متشابها	٢٤	١٢٣

٣٤ - سورة غافر

ولقد أتينا موسى الهدى	٥٣	٦٨

٣٥ - سورة فصلت

ثم استوى إلى السماء وهي دخان	١١	١٠٦
والغوا فيه لعلكم تغلبون	٢٦	٣٥
لا ياتيه الباطل من بين يده ولا من خلفه	٤٢	١٥٠-١٥٨
سنريهم آياتنا في الآفاق وفي انفسهم	٥٤	١١٣

٣٦ - سورة الزخرف

على اثارهم مهتدون	٢٢	٦٨
فلما آسفونا انتقمنا منهم	٥٥	٦٩
قوم خصمون	٥٨	٩

٣٧ - سورة الأحقاف

ومن لا يجب داعي الله فليس بمعجز في الأرض	٣٢	١٠٤

٣٨ - سورة الحجرات

يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى	١٣	١١٥

٣٩ - سورة ق

إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد	٣٧	٥٨

٤٠ - سورة الذاريات

كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسولا إلا قالوا	٥٣	٧

٤١ - سورة الطور

أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون	١٥	١٣١-١٣٣

٤٢ - سورة النجم

تلك إذن قسمة ضيزى	٢٢	٦٣
وإنه هو رب الشعرى	٤٩	١٠٥

٤٣ - سورة القمر

ولقد أنذرهم بطشتنا فتماروا بالنذر	٣٦	٥٤

٤٤ - سورة الواقعة

يطوف عليهم ولدان مخلدون بأكواب وأباريق	١٧-١٨	٥٩

٤٥ - الطـــلاق

الله الذى خلق سبع سموات	١٢	٥٩

٤٦ - سورة القلم

وانك لعلى خلق عظيم	٤	١١٥

٤٧ - سورة الحاقة

إنه لقول رسول كريم	٤٠-٤٣	١٣٤

٤٨ - سورة المدثر

والرجز فاهجر	٥	٧١
إن هذا لا قول البشر	٣١-٣٣	١٣٣

٤٩ - سورة القيامة

إن علينا جمعه وقرآنه	١٧	١٤٧
فإذا قرأناه فاتبع قرآنه	١٨	٦٣

٥٠ - سورة الإنسان

ويطاف عليهم بآنية من فضة واكواب	١٥	٥٩

٥١ - سورة الأعلى

قدر فهدى	٣	٦٩

٥٣ - الكوثـــر

إنا اعطيناك الكوثر	١	٣٧

فهرس الأحاديث النبوية الشريفة

الصفحة

- إن الله ليؤيد حسانا ما ينفح أو يفاخر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . ١٦٦

- إن النبى صلى الله عليه وسلم كان يحرص على الهجاء ١٦٥

- إنا أمة أمية لا تكتب ولا تقرأ . ١٦٠

- انزل القرآن على سبعة أحرف . ٨٩

- اوتيت الكتاب ومثله معه . ١٤٨

- فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم . ١٣٣

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
المقدمة	أ - ج
مصطفى الرافعى	د
الباب الأول : أوجه الإعجاز القرآنى عند الرافعى	١ - ١٣٥
١ - معنى الإعجاز فى اللغة	٢ - ٣
التحدى وثبوت العجز عن معارضته	٤ - ٩
حكمة هذا التحدى	٩ - ١٨
عدم معارضتهم للقرآن وسببه	١٨ - ٣٦
٢ - نظم القرآن :	
لهذا النظم جهات ثلاث فى الحروف والكلمات والجمل	
أولا : الحروف وأصواتها	٣٩ - ٤٥
ثانيا :الكلمات وحروفها	٤٦ - ٥١
ثالثا : ألفاظ القرآن بطريقة استعمالها فوق اللغة	٥٢ - ٧٥
٣ - غرابة أوضاعه التركيبية	٧٦ - ٨٠
٤ - أحكام السياحة المنطقية على طريقة البلاغة لا على طريقة المنطق	٨١ - ٨٣
٥ - الإعجاز اللغوى :	٨٤ - ٩٩
- اللغة التى نزل بها القرآن	٨٥ - ٩٣
- من إعجاز القرآن اللغوى نزوله على سبعة أحرف	٨٩ - ٩٣
- من وجوه الإعجاز اللغوى فى القرآن وأثره فى اللغة :	
- تصفيه اللغة العربية من أكدارها	٩٣ - ٩٥
- جمع العرب على لغة واحدة .	٩٦ - ٩٧
- إقامة أدائها على الوجه الذى نطقوا به	٩٨ - ٩٩
- الجنسية العربية	٩٩
٦- الإعجاز العلمى	١٠٠ - ١١١
تمثيل الإعجاز العلمى عند الرافعى فى أمرين :	
أولا : أثر القرآن فى العقل الإنسانى	١٠١ - ١٠٣
ثانيا : الآيات الكونية	١٠٣ - ١١١

٧ - الإعجاز الأدبي « التشريعي » ١١٣ - ١٣٤
المقصود به - عند الرافعي - آداب القرآن وتشريعاته ١١٣
مقارنة بين رأى الرافعي والخطابي والباقلاني ١١٣ - ١١٦
أثر آداب القرآن في الأمية ١١٧ - ١٣٠
أثر ضعف الأخلاق في الأمة ١٣٠ - ١٣٤
٨ - الإعجاز الروحي « النفسي » ١٣٥ - ١٣٦
٩ - القول بالصرفة ورأى الرافعي في ذلك ١٣٧ - ١٣٥

الباب الثاني : افتراءات بعض البشر على القرآن ورد الرافعي عليه : ١٣٦ - ١٧٧
أ - نماذج من القديم معارضو القرآن فيما زعموا ١٣٨ - ١٥٠
ب - نماذج من العصر الحديث ١٥١ - ١٧٧
الخـــاتمة ١٧٨ - ١٨٥

رقـــم الإيـــداع بدار الكتب المصرية ٥٤١٧/ ١٩٩١
الترقيم الدولى العالمى T.S.b.n.
٦-٣٧-٥١١٦-٩٧٧